جامعة الأزهر

حولية كلية اللغة العربية

بنين بجرجا

من دعوة البيان النبوي إلى الوحدة في صحيح البخاري

دراسة بلاغية تطبيقية

دكتورة

راوية حسين جابر خليل

مدرس البلاغة والنقد ـ كلية البنات الأزهرية

طيبة الجديدة ـ الأقصر

العدد الخامس عشر

للعام ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

الجزء السادس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٦٩٤٠ / 2011

مقدمة

الحمد لله ،والصلاة والسلام على رسول الله ، من أوتي جوامع الكلم ، أفصح من نطق ، وأبلغ من أبان .

أما بعد

فإن البيان النبوي هو قمة البيان البشري بلا منازع ، فرسولنا الكريم ﷺ هو من تنزل القرآن على قلبه بلسان عربي مبين ، فلا غرو أن تنطبع نفسه بمعاني القرآن وأساليبه ، فيأتي بيانه في المنزلة التالية للبيان القرآني، فضلا عن فطرته النقية، ونشأته اللغوية الخالصة، والمنحة الإلهية التي حباه الله بها ؛ فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه، علمه البيان، ووهبه أفصح لسان، فجاءت بلاغته من صنع الله "ألهم الله رسوله اللغة وأساليبها، وأفهمه أسرارها، فنفذ في اللغة وأعماقها وضعا وتركيبا، وامتلك ناصيتها، وأحاط بمراميها وأبعادها، وبلغ من ذلك كله إلى الصميم فكان عليه السلام أفصح العرب لسانا، وأوضحهم بيانا، وأعذبهم نطقا، وأبينهم لهجة، وأقومهم حجة ،وأعرفهم بمواقع الخطاب ،وأهداهم إلى طرق الصواب"(١)

وفي هذا السياق يقول الزمخشري "ثم إن هذا البيان العربي كأن الله عزت قدرته خصه وألقى زبدته على لسان محمد عليه أفضل صلاة ، وأوفر سلام" (٢) من هذا المنطلق آثرت أن يكون بحثي في السنة النبوية المطهرة ، وفي موضوع يمس الواقع الذي نعيشه من فرقة وانقسام بل واقتتال لنرى عظمة البيان النبوي

---

(١) النهاية في الغريب والأثر.ابن الأثير، تحقيق/ طه أحمد الزاوي ،ومحمود الطناحي، ط١ دار إحياء الكتب العربية ،القاهرة١٩٦٣ م،١/٤.

(٢)الفائق في غريب الحديث. الزمخشري، تحقيق /محمد البجاوي ،ومحمد أبي الفضل إبراهيم،ط١ دار الكتب، القاهرة ١٩٤٥م،١/١١

في معالجته، فكان موضوع البحث (من دعوة البيان النبوي إلى الوحدة في صحيح البخاري – دراسة بلاغية تطبيقية)

إذ اخترت مجموعة من الأحاديث التي يدعو فيها الرسول ﷺ إلى ما به يلتئم شمل المسلمين ،وتجتمع كلمتهم ،وتتوحد صفوفهم ،ويناصر بعضهم بعضا، ويسعى بعضهم في حاجة بعض، من منطلق حرصه ﷺ على أمته وخشيته اختلافهم من بعده ،قال الله- تعالى-:﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[٣] وقمت بتحليل هذه الأحاديث تحليلا بلاغيا، مبينة ما توخى ﷺ في نظمها، وحسن تصويره لمعانيها، ودقة بيانه عنها، وما استدعته معانيها من ألوان البديع ؛ لتتجلى لنا روعة هذا البيان في إبلاغ المعاني قلوب السامعين على وجه يهبها الإقناع والإمتاع .لعلنا نرعوي عما نحن فيه من شقاق ، ونتجنب الفتن، ونسعى إلى ما فيه صلاح أمتنا ؛لنقيم مجتمعا متحدا كما الجسد الواحد ،المجتمع الذي أمرنا الله -تعالى- بتحقيقه في قوله :﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[٤]ونهانا عن إفساده بالنزاع في قوله :﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[٥]ووجهنا إليها حبيبنا ﷺ في هذه الأحاديث .

هذا وقد عنونت للأحاديث بعناوين مناسبة،ثم أوردت نص الحديث، ثم التحليل البلاغي الذي يبين عن معناه ، ويوضح الحلل التي برز فيها ،ويكشف عن دقة التراكيب ،وعمق المعاني ،وتماسك النصوص وجودة سبكها ،ووحدة نسيجها.

ثم ذيلت البحث بخاتمة وفهرس للمصادر والمراجع وآخر للموضوعات .

---

(٣) التوبة آية (١٢٨)
(٤) آل عمران من آية (١٠٣)
(٥) الأنفال من آية (٤٦)

وقد اعتمدت في نصوص الأحاديث على صحيح البخاري دون غيره من كتب السنة ؛إذ هو أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل ،واستعنت بمجموعة من المراجع منها على سبيل المثال :

التصوير الفني في الحديث النبوي ، للدكتور محمد الصباغ ،والحديث النبوي من الوجهة البلاغية،للدكتور عز الدين السيد ،والخصائص الفنية في الأدب النبوي ،للدكتور محمد الدبل ، والأدب النبوي ، للدكتور محمد الخولي .

وقد توخيت أن يخرج البحث في أحسن صورة ما استطعت إلى ذلك سبيلا، فلعلي قاربت الهدف ،عسى الله أن يغفر زلاتنا ، ويلهمنا الصواب ؛إنه على ما يشاء قدير .

د. راوية حسين جابر خليل

مدرس البلاغة والنقد

كلية البنات الأزهرية

طيبة الجديدة –الأقصر

تعاون المؤمنين

عن أبي موسى - ﷺ -عن النبي- ﷺ- قال: (المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضُه بعضًا ،ثم شبَّك بين أصابعِه)[٦].

في هذا الهدي النبوي الشريف يحث - ﷺ- على الوحدة والتماسك، وأن يكون الإيمان هو القوة التي تجمع شمل المؤمنين، وتوحد صفوفهم،وتقوي شوكتهم، به يعاون بعضهم بعضا،ويكون ظهيره الذي يتقي به نوائب الدهر ونوازله،فـ "التعاون أساس مهم من أسس الحياة الإسلامية....التعاون على البر والتقوى والتكافل التام.....والإنسان ضعيف بنفسه قوي بإخوانه ،إنه عاجز عن أن يحقق كل شيء يريده لنفسه أو لأمته ولدينه ، وغير قادر على مواجهة قوى الشر العاتية التي تتربص به،ولكن مع أخيه المؤمن قوي يستطيع أن يفعل الكثير وأن يحقق للدنيا ما يود من مثل الحق والخير والعدالة والإحسان...."[٧]

وأول ما يطالعنا من بلاغة الحديث قوله (المؤمن للمؤمن) فما أجمل التعبير باللام الدالة على النفع ، الموحية بالمساندة والمؤازرة ،وكأن كل مؤمن ملك لأخيه المؤمن ،حق له عليه أن يشد عضده ،ويشاركه أمره ، ويكون له في كل حين وله مثل الذي عليه.،ومما يدعم هذا اتحاد اللفظ في طرفي المؤازرة الذي يوحي بتماثلهما ووحدتهما من كل وجه وفي جميع الحقوق والواجبات.

ثم يشبه - ﷺ -المجتمع المؤمن في تقوية كلٍّ لأخيه بالبنيان تقوي كل لبنة فيه أختها ،ويعضد كل جدار مجاوره ،فإذا اختلت لبنة أو نزعت من مكانها اختل البناء "فهو كالبنيان يشد بعضه بعضا....إن جدارا واحدًا لا يستطيع أن يبقى

---

(٦) صحيح البخاري ،بحاشية السندي،ط دار إحياء الكتب العربية ،كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا ٥٥/٤

(٧) التصوير الفني في الحديث النبوي .د.محمد لطفي الصباغ ط١ المكتب الإسلامي بيروت١٩٨٨ ص٤٤٨.

منتصبًا ثابتًا طويلة ، بل تراه أكثر تأثرا بعوامل الطبيعة من الرياح العاصفة والأمطار الثجاجة وفعل الناس المستمر من استناد إليه وارتطام به .....فلا تلبث أن تراه ينقض ويقع إلى الأرض،ولكن هذا الجدار عندما ينضم إلي جدران وسقف وبيوت عن يمينه ويساره يكون أكثر قوة واحتمالا ورسوخًا وثباتا ....إن ذلك يعطيه قوة ومقاومة وشدة "[٨] هكذا يأتي بمشبه به من الواقع المحسوس ،صورة تقع تحت البصر ،لا تخطئها عين ؛ليقرب المعنى إلى الأذهان بعرضه في صورة محسوسة ،فيفهمه المتلقون ،إذ النفس إلى الحس أقرب ، فيكون ذلك أجدى للترغيب فيما يدعو إليه من التعاون والوحدة ،والتنفير مما تؤدي إليه مخالفته من ضعف وهوان.

فعلى المجتمع المؤمن أن يحرص على تحقيق التماسك والتعاون لئلا يُنال من قوته فتُبدل ضعفا ،ويصير مكانه خلف الأمم ، لابد من صحوة تجب ما سبقها من غفلة، ونشاط يمحو ما كان من إهمال وتكاسل وخذلان.

ولأن المؤمنين في حاجة متجددة إلى التماسك والوحدة ،تراه ﷺ- يتبع المشبه به قوله (يشد بعضه بعضا) تلك الجملة التي توحي بوجه الشبه ،وقد عبر فيها بالفعل المضارع (يشد) الدال على التجدد ، فلا يزال البنيان قائما بتجدد شد بعضه بعضا ،وإلا ينهار ويخر ساقطا ، وكلما زاد الممثَّل به وضوحًا زاد الممثَّل ؛لأنه موضوع له ،والمشبه مقيس به ، فلئلا يدب الوهن في المجتمع المؤمن يجب البعد عن كل ما يفرق شمله، ويشتت وحدته ،ويشمت به عدوه ،ويجب أن يحرص المؤمنون على تجدد مؤازرتهم بعضهم بعضا ،وعلى ألا ينقسموا فرقا وشيعًا فيذيق بعضهم بأس بعض .

---

(٨) المرجع السابق ص٤٤٨.

ثم يتبع ﷺ بيان الكلمة بالبيان بالحركة تأكيدا للمعنى المراد،وليكون أوقع في النفس وأعمق أثرًا ،فبعد أن يعي السامع المعنى بعقله يرى لـه هيئـة ممثلـة بالحركة والإشارة ،حركة تشبيك الأصابع المؤكدة لمعنى التقوية الموحية بالتداخل؛ حتى يصير المؤمنون جميعهم شخصًا واحدًا صيرورة اليدين بتشـابك الأصـابع كالعضو الواحد .

والبيان بالإشارة "لون من ألوان التصـوير التـى توضـح الفكـرة وتبـين المراد....وهي إذا كانت في محلها كنت معينة على الفهم، ملفتة للنظـر ،طـاردة للشرود ،مشركة في المتابعة أكثر من حاسة،فالناظر يرى الإشارة ويسمع العبارة، ويذكر كل منهما بالأخرى،فحركته تلفت النظر وتنبه الغافل ،وتعين علـى الحفـظ والتذكر"(٩)

هذا، وأفهام الناس متفاوتة ،والنبي ﷺ حريص على أن يبلغ رسـالته إلـى الناس كافة ،ولعل بعضهم لا يفهم العبارة،فتعوضه الإشارة "وقد توصـل علمـاء اللغة المعاصرون إلى إدراك أثرها في إبلاغ المعنى ،فتحدثوا عما أسموه علم اللغة الحركي أوالسيمياء ،ووضعوا له النظريات العديدة،وساقوا له الأمثلة الكثيرة ،وما أكثر أمثلته في الحديث "(١٠) وما أغنى دلالاته .

وفي الحديث من وسائل ترابط النص (كاف) التشبيه التي ربطت بـين طرفيه ،وكشفت عن العلاقة بينهما ، وأبانت أن صورة المشبه به قائمة في نفوس المخاطبين ،ومقررة لديهم عن طريق الحس ،وأن المشبه ملحق به فـي تقويـة أفراده بعضهم لبعض ؛لتتحقق الغاية التي يدعو إليها الحديث بحمل حـال غيـر واضحة نسبيًا على أخرى جلية لدى المتلقين .

---

(٩) السابق ص ٥٢٥.

(١٠) بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف فـي الصـحيحين.د.عـودة خليـل أبوعودة، ط ٢ دار البشير ،عمان –الأردن ١٩٩٤ م،ص ٦٧١.

وفيه أيضًا الربط بضمير الغائب المستتر في (يشد) والمتصل في (بعضه) مما أدى إلى تماسك النص ووحدة بنائه على النحو الذي تقتضيه نظرية النظم .

عن النعمان بن بشير – رضي الله عنهما – قال:قال رسولُ الله ﷺ : (ترى المؤمنينَ في تراحُمِهم ،وتوادِّهم، وتعاطفِهم كمثلِ الجسدِ إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائرُ جسدِه بالسَّهرِ والحُمَّى)[١١].

يعطينا الرسول ﷺ صورة لما يجب أن يكون عليه المؤمنون في التحام بعضهم ببعض فيمثلهم في التراحم والتواد والتعاطف " بالجسد الواحد فكما أن الجسد إذا مرض منه عضو تألم له الباقي ،فلم يذق نومًا وسرت إليه حرارة الحمى فآلمته ، فكذلك المؤمنون إيمانًا حقيقيا إذا ناب واحدا منهم نائبة شعر بألمها الباقون،فسعوا بما فيهم من العواطف لدفع الألم عنه وجلب الخير إليه "[١٢]

فالوحدة بين المؤمنين يجب أن تكون "وحدة حقيقية تغوص في الأعماق والمشاعر ، وتبدو على الوجوه والألسنة،... وحدة عضوية إذا ألمت بواحد منهم كارثة تداعى لذلك سائرهم بالمشاركة في الألم والرعاية....إن إحساس المرء بأن هناك من يشاركه شعوره يخفف عنه كثيرًا من الألم ، ويغرس في نفسه أملًا في المستقبل يحمله على تخطي العقبات"[١٣] بل ينبغي ألا يقتصر الأمر على الكوارث، فليشاركه أفراحه وأتراحه ،حلوه ومره ،سراءه وضراءه ،ويكون له على أية حال.

ولنتأمل تعبيره ﷺ بالفعل(ترى)الذي يمثل لنا صورة المؤمنين في التواد والتراحم والتعاطف حقيقة ماثلة أمامنا لا تخطئها عين ، يراها كل من تتأتى منه

---

١١) البخاري ،كتاب الأدب ،باب رحمة الناس والبهائم ٥٣/٤.
١٢) الأدب النبوي .محمد عبد العزيز الخولي ،اعتنى به/عبد المجيد طعمة الحلبي، ط ٢ دار المعرفة –بيروت ١٩٩٨م،ص ١٢١.
١٣) التصوير الفني في الحديث ص٤٤٩.

الرؤية، فقد جاء فعل الرؤية ، وصيغة الخطاب متآزرين ليعطيا هـذه الفائـدة ، ويلمحا إلى أن وحدة المؤمنين ينبغي أن تكون هكذا رأي العين وأن تنتقـل مـن المعنى إلى الحس .

ثم لنستشعر قوة الصلة التي جسدها صوت الدال المضعفة فـي (تـوادِّهم) كيف أنبأت – مع صيغة التفاعل –عن ضرورة أن يبذل كل منهم الـود والوصـل للآخر بقوة متكافئة .هكذا استعمل ﷺ صـيغة التفاعـل فـي المفـردات الـثلاث المعطوف بعضها على بعض ،على الرغم من تقاربهـا فـي المعنـى (تـراحمهم وتوادهم وتعاطفهم) مضافة إلى ضمير المؤمنين ؛ ليؤكد ضرورة اشتراك جميـع الأطراف في بذل كل ما من شأنه أن يؤلف القلوب من رحمة وود ووصل وعطف وحنو وغيرها .

يمثلهم نص الحديث – متى كانوا على هذه الحال – بالجسد (كمثل الجسـد) كل فرد من المؤمنين عضو في جسد المجتمع المؤمن ،جزء من كل لا يسـتغني أحد أجزائه عن الآخر ولا يقوم بدونه ،ثم يبين حال الجسـد بقولـه (إذا اشـتكى عضوا تداعى....) فما أروع تنكير لفظ (عضوا) إذ دل على أن سائر الجسد يألم لألم أي عضو منه كبر أو صغر ، عظم أو ضؤل ، يستوي الإحساس به وتأريقـه لسائره ، هكذا ينبغي أن يكون حال المؤمنين يتـأثرون لأي فـرد منهم،ويهبـون لنجدته ،علا شأنه أو نزل ،عظم منصبه أو ضؤل ، كلهم سواء ،فالإيمان هو القوة التي تنتظمهم ولا تفرق بين أحد منهم "وفي هذا التشبيه أن أعضاء البـدن كلهـا وإن لم تكن متساوية في الأهمية لكنها متساوية من حيث تألم الجسد لحلـول أي ضرر عليها ،فالأصبع والظفر والعين واليد والرأس كل أولئك إذا حصل لها مكروه تألم صاحبها وسهر من أجلها ،وهكذا فليس هناك عضو في المجتمـع الإسـلامي

مهما كان شأنه هينا لا تتأثر له الأمة من أجل ضر أصابه ، إنهم لا بد أن يتألموا لأنهم جسد واحد "[١٤]

" وانظر إلى تناسق ألفاظ التشبيه كيف لاءمت صورة التشبيه المنتزعة من الواقع القريب حتى قربت إلى الأذهان تلك الصورة الرائعة ، وأقرت المعنى بما تمتاز به من السهولة والوضوح ، حيث لا تعقيد ولا تقصير، وإنما اختيار جعل كل لفظة لفق أختها لا تبغي عنها حولا ،ولا تصلح بجانبها غيرها ،مع طريقة فذة في النظم والتناول.....كل ذلك الاتساق تم في أيسر تناول وأقرب مأخذ "[١٥]

ولتصغ آذاننا – لحظة – إلى الفعل (تداعى)؛لنرى حركة الأعضاء يدعو بعضها بعضًا لنصرة العضو المصاب في نفس طويل لا يمل الدعوة ،بل يثابر عليها حتى يحقق الغاية ، هذا ما جسدته الفتحة الطويلة في الفعل، كذلك ينبغي أن يكون المؤمنون في الدعوة إلى نصرة الواحد منهم ورفع معاناته وإزالة أسباب شكواه يدعو بعضهم بعضا دون كلل ولا ملل حتى تحقيق الغاية وقطف الثمار .

علاوة على ما في صيغة الفعل من " معنى التفاعل والمشاركة، أي أن كل عضو يشارك غيره ، وأنهما يتعاونان لغاية واحدة ،ويشتركان فيما يؤدي إلى المنفعة ، ويشتركان أيضا في تحمل الأذى والضرر "[١٦]

ثم علق ﷺ بالفعل الجار والمجرور (له) ليفيد أن هذا التداعي إنما هو له، ومن أجله، ونفع له ،ويعمل على ما يصلحه .

إن (سائر الجسد)يألم لألم العضو ،ويبقى مسهدًا محمومًا لا يقر له قرار، ويهدم من مخزونه من العناصر الغذائية لإغاثة العضو المشتكي "وقد جاء اللفظان

---

١٤) السابق ص٤٤٩.

١٥) الخصائص الفنية في الأدب النبوي .د.محمد سعد الدبل ،ط٢ العبيكان ١٩٩٧م،ص١٢٨.

١٦) المرجع السابق ص١٢٨.

معتنقين اعتناق العضو بما يليه من سائر أعضاء الجسد،وهذا التعبير تعميم وتفصيل ،حيث يعاني عضو واحد ما يعانيه من المرض والسقم فتتداعى له سائر الأعضاء "[١٧] وأنتم أيها المؤمنون جدير بكم ألا تذوقوا طعم الراحة ، حتى تحققوا راحة أخيكم ، بذا تكونون مؤمنين حقا ، أما من لم يتأثر لأخيه " ولم تعطفه العواطف ،ولم تبكه البواكي ،فليتحسس قلبه ،وليسأل نفسه : أين أنا من دلائل الإيمان ؟ "[١٨]

وبقليل من التأمل في الجملة الشرطية (إذا اشتكى ...تداعى...) يتضح لنا ما ينم عنه تزامن فعلي الشرط والجزاء ،إذ كلاهما ماض ؛ ليلمح لنا رسولنا الرحيم ﷺ إلى أن المؤمن ينبغي أن يسرع في جد ونشاط ، ويهب على الفور لنجدة أخيه دون ما تردد ولا تلكؤ حتى لكأن الإسعاف يصحب الإصابة في زمن واحد دون ما فاصل ،فـ " مجانسة جواب الشرط لفعله في المضي مع إمكان أن يكون مضارعا...فيه إشعار بالمبادرة،وإسراع بالنجدة ،للاقتران الزمني بين الشكوى والتداعي"[١٩]

ولننظر: أي تداعٍ يريد ؟ إنه يريد تداعيا يفيد المشتكي ،لا مجرد أن يدعو بعضنا بعضا، وإنما أن نأتي في تداعينا بما يزيل المعاناة ، ويرفع الشكوى ،لذا لم يدع النظم الكريم الفعل (تداعى) على إطلاقه،وإنما علق به قوله (بالسهر والحمى) فسائر أعضاء الجسد يسهر في عمل دءوب ؛ لإنقاذ العضو المشتكي وإغاثته ، ويحتم لحماه .

إن تداعي باقي أعضاء الجسد لإغاثة العضو المشتكي، لصورة من صور التعاون الجماعي تبين عما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المسلم من تعاون

---

١٧) السابق ص١٢٨.
١٨) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية .د. عز الدين السيد ،ص١٥٤.
١٩) المرجع السابق ص١٥٤.

وتماسك ،وإحساس سائر أفراده بحاجة الواحد منهم ؛ ليسعوا جميعا فيها . وهكذا كان للمثل أثر بالغ في إيصال المعنى إلى العقل والقلب، ذلك أنه يقدم المعنوي في صورة محسوسة ، فيربطه بالواقع ،ويقربه إلى الذهن ،فضلا عن أن المثل بمختلف صوره له بلاغة تأخذ بمجامع القلوب ، وتستهوي العقول .

"فلتعتبر بهذا الحديث الأمم الإسلامية التي لا تألم لما يصيب جارتها ،بل ربما ساعدت عدوها على القضاء عليها ،وليعتبر به أولئك الأفراد الذين جدوا في اصطياد مصالحهم الشخصية وإن أضرت بآخرين ،وإذا ما طلب منهم مواساة إخوانهم ولوا على أدبارهم نفورا،أولئك لم يتوطن الإيمان بعد في نفوسهم "[٢٠]بل لا حياة لقلوبهم.

هذا ،وقد توافر في الحديث العديد من وسائل ربط النص وتعليق الكلم بعضها ببعض ؛ لتؤدي معنى واحدا وتوحد بنية النص ،هي الشرط والعطف والضمير و(كاف) التشبيه.

وفى الحديث سهولة اللفظ ووضوح الدلالة ، والبعد عن الغموض مما هو سمة عامة وطابع غالب للبيان النبوي ،الذي يريد أن ينفذ إلى القلوب دون ما حائل ليفهمه الناس على اختلاف مستوياتهم وتفاوت عقولهم ، وتلك هي مهمة التبليغ ،يقول العقاد :" إن محمدا العربي الناشيء في بني سعد ،العالم بلهجات القبائل لم يكن في كلامه غريب يجهله سامع ،أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة؛لأنه يريد إبلاغ رسالته مباشرة دون حاجز لفظي أومعنوي "[٢١]

يضاف إلى ذلك وجازة لفظه ،وسهولة حفظه ،إذ يحمل في طياته العديد من المعاني حتى ليعد من جوامع كلمه ﷺ ،فكلما تأملت عدت بفائدة جديدة،وكلما زدت في تفكره زادك من معانيه ، وكلما أطلت النظر ، جنيت المزيد من الثمر .

---

٢٠) الأدب النبوي ،ص١٢١.

٢١) عبقرية محمد .العقاد ،ط نهضة مصر –القاهرة،ص٧٣.

الأخوة في الدين

عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال :قال رسول الله ﷺ : (المسلمُ أخو المسلمِ لا يظلمُه ولا يُسلمُه ،ومن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِه ،ومن فرَّج عن مسلمٍ كربة فرَّج اللهُ عنه كربة من كرباتِ يومِ القيامةِ ، ومن سترَ مسلمًا ستره اللهُ يومَ القيامةِ)[٢٢]

يبدأ بدعوة إلى توثيق العلاقة بين المسلمين فـ"المراد بأخوة المسلم للمسلم توثق العلاقة بينهما كتوثقها بين إخوة النسب توثقًا يترتب عليه المحبة والمودة والمواساة والنصر ،وجلب كل خير ودفع كل ضر ،ومن مقتضى الأخوة أنه لا يظلمه ،ولا يسلمه ،وظلمه انتقاص حقه في نفسه أو ماله أو عرضه ،طيبًا كان أو فاسقا....وإسلامه خذلانه وتركه لعدوه ينكل به ،أو يقضي عليه ،وقد حث الحديث على السعي في مصالح الناس سواء كانت مصالح مالية أو علمية أو أدبية ، وقد دلت العبارة على أن الوقت الذي ينفقه الإنسان في قضاء مصالح لغيره لا يضيع عليه ،بل القدير العليم الذي بيده خزائن السموات والأرض يسعى في قضاء حاجاته ،فهو إن بذل للإنسان قليلا نال به من الله خيرا كثيرًا ، فليستعن المرء على قضاء حاجته بقضاء حاجات الناس ، وهذا المعنى يدخل في عموم قوله تعالى (إن تنصروا الله ينصركم) وفي الحديث حض على السعي في دفع البلايا التي تحل بالمسلمين في الحياة الدنيا، فمن أصابته مسغبة بذلت له من مالك ،أو حثثت الأغنياء على معونته ، ومن بلي بالعطلة سعيت له في عمل ،ومن حاق به ظلم رفعته عنه ما وجدت إلى ذلك سبيلا، ومن انتابه مرض داويته أو أحضرت له طبيبا"[٢٣]وهكذا.

---

٢٢) رواه البخاري ،كتاب المظالم ،باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه .
٢٣) الأدب النبوي ،ص٥٥.

فالقول الكريم يشبه من يجمعك معه الإسلام بالأخ في ملازمته لأخيه وحبه له ومعاونته إياه، ومعاضدته له، والعمل على كل ما فيه صلاح أمره ،فلتكونوا أيها المسلمون جميعا إخوة كما نطق بذلك الذكر الحكيم ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٢٤)

وقد اقتصرت جملة التشبيه على طرفيه (المشبه والمشبه به) إذ حذفت أداة التشبيه لتقوى دعوى اتحاد الطرفين ،حتى لكأنه أخو نسب على الحقيقة،وحذف وجه الشبه؛ لتذهب نفس المتلقي في تقديره كل مذهب مما يقتضيه معنى الأخوة، وتستلزمه حرمتها من محبة ، ومؤازرة ، ومناصرة ،ومشاركة في السراء والضراء وغيرها ،فما أروع البيان النبوي إذ يترك النص مفتوحا إثراء للمعنى ، ويفسح المجال لخيال المتلقي ،ويحرك فكره ، ويعمل عقله ،ويديم اتصاله وتعلقه بالنص .

فالفرد الواحد من المسلمين ينبغي أن يكون أخًا لجميعهم ،فيصير المسلمون جميعا أسرة واحدة ، وبذا يتحقق الالتئام بين أفراد المجتمع المسلم ،وتتجلى الوحدة في أروع صورها ،وهذا ما أكده تكرار لفظ (المسلم) إذ أفاد اتفاق الطرفين من كل وجه .

وتأتي جملة (لا يظلمُه)مبينة أنه مما يترتب على الأخوة ،بل يقترن بها أن لا يقع منك ظلم على أخيك المسلم ،بل أنت جدير برفع الظلم عنه إن وقع عليه من غيرك .

ولنتأمل – هنيهة – جمال فصل الجملة عن سابقتها (المسلم أخو المسلم) فهي مستغنية عن الواو بما بينهما من صلة معنوية،وهذا من قبيل كمال الاتصال ؛لأن الثانية بمنزلة بدل البعض من الأولى،فكف الظلم ورفعه جزء من معنى الأخوة.

---

٢٤) الحجرات من الآية (١٠)

وقد أوثر التعبير بالخبر دون الإنشاء (لا يظلمْه) لما يدل عليه لفظ الخبر من مسارعة إلى الامتثال ، وكأن المسلمين جميعا قد كفوا عن ظلم بعضهم بعضـــا ، وأنهم يترفعون عن تكذيب خبر النبي لذا امتثلوا فصار المطلـــوب خبـــرا ، ففـــي التعبير عن المطلوب بالخبر حمل على امتثاله وتحقيقه .

ثم يضم جملة (لا يسلمه) إلى سابقتها ، فيصل بينهما بالواو للتوســـط بـــين الكمالين مع عدم المانع من الوصل ،بل ثمة ما يحسنه وهو اتفاقهما في الفعليـــة والمضارعة ،وهذا من عطف الخاص على العام ؛لأن خذلانه جزء من ظلمـــه ، وفيه التأكيد على ضرورة أن لا يخلي بينه وبين الهلكة ،وأن يعمل جاهـــدا علـــى إنقاذه ،حتى يحقق له النجاة .

ثم تأتي الجملة الشرطية (ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته) مـــا أروع الشرط وما أعظم مكافأة فاعله،فإنك إذا ســـعيت مخلصـــا لتقضـــي حاجـــة أخيه،كان لك مثل ذلك،ولكن انظر ممن؟مَن المكافئ؟إنه أكرم المكرمين ذو العطاء الذي لا ينفد،فلتجدَّ يا أخي ،ولنجدَّ جميعاً في السعي في حوائج المسلمين ،وقضاء مصالحهم؛فإن ذلك لن يذهب سدى ،بل تحصِّل به نفعا عظيمـــا لنفســـك ألا وهـــو قضاء حوائجك من حيث لا تدري ،بتسخير القدير ذي العطاء الجزيل ، فجعل لفظ الجلالة فاعل جملة الجواب يبث في المتلقي الثقة في نيل الجزاء الأوفى ،ويكسب الجملة الجلال .

ولنتأمل تزامن فعلي الشرط والجزاء ؛ فهو يفيد سرعة المكافـــأة، وتحقـــق وقوعها،دون فاصل زمني بين الفعل والمثوبة كيف !؟ وهو بأمر من يقول: كن ، فيكون .

ولنتساءل:لم قال:ومن كان في حاجة... ولم يقل:ومن سعى في حاجـــة....؟ ألـــ (كان) دلالة زائدة على (سعى)؟ نعم ،لابد أن ثمة فرقًا ،فنبينا ﷺ لا ينطق عن الهوى ،فلعله يريد أن يلمح من طرف خفي إلى ضرورة الإخـــلاص والجـــد فـــي

السعي ،فلتكن أيها المسلم كلك بجمع حواسك في حاجة أخيك وخدمته ،وليسيطر عليك هذا الشعور المقدس (أنك لأخيك) ،ولتنشغل به انشغالا تاما حتى تصل إلى الغاية .

وقوله (ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة) حث على دفع الشدائد عن المسلمين في الدنيا ؛لتُدفع عنك وتُخفف شدائد يوم الفزع الأكبر ،يوم لا تملك من أمر نفسك شيئا ،فلتعمل له في دنياك ،ولتبادر إلى ما يخفف عنك في أخراك .

والتعبير بالنكرة (مسلم) يفيد العموم لسائر المسلمين قويهم وضعيفهم، قريبهم وبعيدهم ،فليكن موقفك منهم على حد سواء،إذا نابت الواحد منهم نائبة أيا ما كان، عليك بالسعي في تفريجها .

وكذا تنكير (كربة) الأولى يفيد العموم ،فمهما كان حجم الكربة ،ومهما كان نوعها ،كبرت أو صغرت ،اشتدت أو ضعفت ،فإنك تثاب على تفريجها ،فعملك لا يُفرط منه شيء ،وأجرك ثابت عند من لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وتعظم المثوبة بعظمة المثيب ،انظر إلى جواب الشرط (فرج الله عنه ...) إنك لا تنتظر الجائزة من مخلوق (حاكم أو مسئول) قد لا ينجز ما وعد ،وإنما أجرك بيد صاحب الملكوت – سبحانه – يكافئك بكشف كربة من أهوال يوم القيامة، فما أجزله من عطاء، وما أكرمه من مثيب !

أما كلمة (كربة)الثانية فتنكيرها يفيد التعظيم والتهويل ؛إذ هي ليست مثل كرب الدنيا ،وإنما تفوقها كثيرا في الشدة ،ولا يملك كشفها إلا العلي القدير ، فالجزاء أعظم من العمل ،والجنى أطيب من الغرس .

ثم يتبع بجملة شرطية أخرى يحث فيها على الستر ويبين أنه باب عظيم من أبواب التقوى (ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة) فإذا اطلعت من أخيك على ما يشينه ،أو رأيت ما لا يحب أن يراه الناس ،فاحرص على كتمانه ،ولا

تفضحه بين الناس ؛لئلا تسوء سمعته وتلوكه الألسنة ؛فإن لهذا جزاء عظيما هو ستر الله لك يوم الهول الأعظم .

ولننعم النظر في قوله (ستر مسلما) فقد عدى الفعل مباشرة دون حرف،إذ لم يقل (ستر على مسلم) لأن الأول أعم وأشمل؛لأنه يفيد ستر المسلم جملة من جميع جوانبه ،دون الاقتصار على جانب سترا حسيا ومعنويا ، أما تعديته بعلى فلا تفيد ذلك ، فربما ستر عليه شيئا وعراه في أشياء ؛لذا كان لفظ الحديث أبلغ ، وأوفى بتأدية المراد .

هذا، وتكرار بعض ألفاظ الحديث تأكيد لمعانيها ،وحض على السعي الحثيث في تحصيلها ؛لتكون مسلما حقا يرفع الظلم عن أخيه المسلم ،ويدفع عنه التهلكة، ويعينه على حوائجه، ويفرج عنه غمه وهمه، ولا يهتك عنه ستره فتنال الثواب الأعظم من العلي الأكرم،يقول الخطابي : "إنما يحتاج إلى التكرار ،ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها،ويخاف بترك التكرار وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها"[٢٥]

نجد هذا التكرار في كلمة (مسلم)التي ذكرت في النص أربع مرات فكانت محور الحديث ، وحجر الزاوية،والخيط الرئيس الذي يربط النص من أوله إلى آ خره؛ لأنه المنوط بالتوجيهات والمنوط بالمعاملة.

ويتجلى التكرار أيضا في ألفاظ (كان ،وحاجة ،وفرج ،وكربة ،وستر ، ويوم القيامة) هذا التكرار يسلط الضوء على مدلولات الألفاظ ،ويؤكد أنها موضع اهتمام المتكلم ،فيعيها المتلقي جيدا، ويسعى بدوره إلى الاهتمام بها والاستجابة

---

٢٥) بيان إعجاز القرآن .للخطابي،ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن،تحقيق/محمد خلف الله،وزغلول سلام ،ط دار المعارف-القاهرة ،ص٤٨، والبرهان في علوم القرآن .للزركشي ،تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط٢ دار التراث-القاهرة ٣/١١ .

لها ،"ويرى علماء اللغة النصيون أن الإحالة بالعودة [التكرار] تعطي منتج النص القدرة على خلق صور لغوية جديدة ؛ لأن أحد العنصرين المكررين قد يسهل فهم الآخر "[٢٦] وبذا يتعدى التكرار الغاية الجمالية ، ليكون له إلى جانبها دوره في التعليم والتبليغ .

ويبرز في الحديث من وسائل تماسك النص وترابطه مضافا إلى التكرار وسيلتان هما : الشرط ، وضمير الغائب ،أما عن الشرط فقد جاءت في الحديث ثلاث جمل شرطية (ومن كان في حاجة....، ومن فرج عن مسلم....،ومن ستر مسلما....) ولما كان الشرط سببا في الجزاء فهما مرتبطان ارتباط السبب بالمسبب ،وقد مثل فعل الشرط عنصرا مشوقا يتعلق به المتلقي وينتظر – متلهفا– الجواب والجزاء،مما وهب النص علاقات ترابطية أدت إلى جودة السبك ، ونفت عن المتلقي الشرود .

وأما عن الضمير ،فقد زخر الحديث بضمير الغائب المستتر في الأفعال الماضية، وضمير الغائب المتصل في (يظلمه ،ويسلمه ،وحاجته ،وعنه ،وستره) مما جعله رابطا قويا حقق مع غيره للنص وحدة نسيجه وإحكام بنائه ،ولذلك لا يفتأ النصيون يؤكدون أهمية دور الضمير مع الوسائل الأخرى في تحقيق التماسك والترابط النصي فيرون أن " للضمير أهمية في كونه يحيل إلى عناصر سابقة ولاحقة في النص، كما أنه يحقق ميزتين : الأولى : الغياب عن الدائرة الخطابية ، والثانية :القدرة على إسناد أشياء معينة ،وتجعل هاتان الميزتان من هذا الضمير موضوعا على قدر كبير من الأهمية في دراسة تماسك النصوص"[٢٧] .

---

٢٦)النص والخطاب والإجراء. دي بوجراند ،ترجمة د.تمام حسان ،ط عالم الكتب –القاهرة ١٩٩٨م،ص١٠٥.

٢٧) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق .د.صبحي إبراهيم الفقي ،ط١ دارقباء –القاهرة ٢٠٠٠م،١/١٦١.

وهكذا،فقد حفل الحديث بالعديد من وسائل الربط وعناصر االسبك،مما جعله بنية متماسكة تتضح فيها وحدة الوضع .

كما أن له جرسا وتنغيما نتج عن التكرار ،مضافا إليه جناس شبه الاشتقاق بين (المسلم) و(يسلمه) فالأولى من الإسلام ،والثانية بمعنى يخذله .

عن أنس عن النبي ﷺ قال: (لا يُؤمنُ أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسِه)[٢٨].

ينتفي الإيمان بانتفاء المحبة ،هكذا يخبرنا الرسول ﷺ إذ يعلق وجود الإيمان على علة غائية هي أن يحب المؤمن لأخيه من الخير ما يحبه لنفسه ،فالغاية المراد الوصول إليها هي نشر روح التحاب بين المؤمنين ،فما لم يتحقق ذلك فليس الإيمان بكامل ولا العقيدة راسخة .

ونظرة إلى لفظ (أحدكم)تدلنا على ما له من معنى العموم ،فأي واحد منكم كائنا من كان ،ومهما عظمت فعاله ،لن يستثنى من هذا الحكم ،لابد أن يحقق هذا الشرط (أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه) أن يتجاوز الأنا إلى الغير ،أن يخرج من دائرة نفسه المغلقة إلى آفاق أرحب فيحب الخير للآخرين.

وما أجمل موقع(حتى) وما أوثق الربط بها ، إنها تمثل قنطرة يُعبر عليها بصحبة المحبة والأخوة إلى الإيمان الحقيقي .

أما التعبير بـ(أخيه) فإنه يلطف القلوب، ويرقق المشاعر، ويرهف الحس، ويزكي النفس ،ويوقظ الهمم وفاء لحق الأخوة؛ إذ أنت وأخوك صنوان من أصل واحد يجب أن تتشاركا في كل شيء ،وتتناصرا حتى يحقق كلٌّ لأخيه ما يريده لنفسه،ويدفع عنه من الأذى ما يدفعه عن نفسه ،لذا قدم الجار والمجرور (لأخيه) على المفعول مع أن رتبته بعده .

---

٢٨) البخاري ،كتاب الإيمان،باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

أما مفعول (يحب) فهو الاسم الموصول (ما) الذي يفجر طاقات هائلة من المعاني ،إذ يشمل كل محبوب من جلب الخير والنفع ،ودفع الشر والضر بمختلف صنوفها مما يتعلق بالدين والدنيا والآخرة ،من صحة ، ومال وولد، وغفران للذنوب، وفوز بالجنة ... وصولا إلى أبعد الغايات حيث رضى المولى عزوجل .

ثم يتكرر الفعل(يحب) في صلة الموصول ؛ إلماحا إلى ضرورة المطابقة بين ما ترغب فيه في جانب نفسك ،وما ترغب فيه في جانب أخيك، فضلا عما أفاده التكرار من التأكيد ، وإبراز دلالة الكلمة ،وجعلها محور النص ونقطة ارتكازه .

هذا، والحديث على وجازة لفظه حوى العديد من المعاني ،فهو "من جوامع الكلم ،ومن الحكمة النبوية الصادقة،إذ يبين فيه الرسول ﷺ دعامة رئيسية من دعائم الإيمان التي يجب أن يطبقها الإنسان في حياته العملية ،وهي الحرص على الأخوة الإنسانية الحانية وتأكيدها ،إذ يجب على المؤمن الحقيقي أن يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه ،ويبغض له من الشر ما يبغضه لنفسه .....وبذلك يثمر الإيمان الحقيقي محبة الآخرين ،ومحبة الخير لهم ...فيحيا في مجتمعه حياة ملؤها المحبة والتعاون ...وذلك هو التطبيق العملي للإيمان الذي يدعو إليه ديننا الحنيف "[٢٩]

هذه هي خاصية الإيجاز التي شاعت في كلامه ﷺ فقد كان يقول ليُبلغ ويُحفظ عنه ليتواتر حديثه ،لذا جاءت عباراته مركزة قوية ، قليلة اللفظ ممتلئة المعنى،يقول الرافعي: " ومن كمال تلك النفس العظيمة ،وغلبة فكره ﷺ على لسانه قل كلامه ،وخرج قصدًا في ألفاظه ،محيطا بمعانيه ،تحسب النفس قد اجتمعت في الجملة القصيرة والكلمات المعدودة "[٣٠]

---

٢٩) البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية. د.عزة محمد جدوع ،ط ١ مكتبة الرشد ٢٠١٣م ،ص٢٩٣.

٣٠) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. الرافعي ،ط٨ دار الفكر العربي-القاهرة ١٩٩٥م،ص٢٨٥.

السلام من سبل تحقيق الوحدة

عن عبد الله بن عمرو:أن رجلًا سأل النبي ﷺ :أيُّ الإسلامِ خيرٌ ؟ قال: (تُطعمُ الطّعامَ ،وتقرأُ السلامَ على من عرَفت ومن لم تعرفْ)[٣١]

في هذا الحديث يعظم الرسول ﷺ أمر خصلتين،ويجعلهما أحق خصال الإسلام بوصف الخيرية هما:إطعام الطعام ، وإفشاء السلام،فلماذا ؟ لأن من شأنهما جمع المسلمين وتحقيق الصلة بينهم،وبث روح المودة فيهم والتأليف بين قلوبهم .

وأول ما يلفت النظر في هذا النص تنكير لفظ (رجل) في قوله (أن رجلا) لعدم تعلق الغرض بمعرفة الرجل من هو؟ وإنما يعنينا خبر الرجل ،وما جاء به ، وعن أي شيء سأل ؟ لقد سأل عن عظيم (أي الإسلام خير؟) يلاحظ أن صيغة الاستفهام تجذب انتباه السامع أوالقارئ ، وتجعله شغوفا بالمتابعة لمعرفة الجواب؛ ليسارع إلى العمل به، فيحوز الخير .

ثم يأتي جواب حبيبنا رسول الله ﷺ (تطعم الطعام)بالصيغة الخبرية ؛ ليحث على الامتثال والمبادرة إلى العمل بالنصح ، لأن جمهور السامعين ينزه الرسول عن نسبة الكذب إليه ،فيكون ذلك أدعى إلى التطبيق العملي لا مجرد السماع .

وجاءت صيغة الخطاب لتفيد العموم ،فليس الخطاب للسائل فحسب وإنما لكل من يتأتى منه الخطاب،كما أن صيغة الخطاب أجدى في التوجيه والنصح من غيرها ، إذ تجعل الطرف الآخر في المواجهة (لا يستطيع أن ينزوي) فيستحيي ويخجل من المخالفة ، ويسارع إلى العمل بمضمون النصيحة .

---

٣١)البخاري ،كتاب الاستئذان ،باب السلام للمعرفة وغير المعرفة ٨٧/٤.

ثم يضم جملة (وتقرأ السلام) إلى سابقتها ،فيصل بينهما بالواو للتوسط بين الكمالين، إذ اتفقتا في الخبرية ، كما أن ثمة ما يحسن الوصل وهو اتفاقهما في الفعلية والمضارعة .

ولمزيد من تحقيق الألفة بين الناس يعلق ﷺ بالفعل (تقرأ) قوله (على من عرفت ومن لم تعرف) فليس شرطا لإلقاء السلام أن يكون من تلقَى ممن سبقت معرفته من نسب أو مصاهرة أو صداقة أو نحوها ،وإنما يشمل جميع من لقيت ، فيحقق رابطة بينك وبين من لم تعرف من قبل، فتتسع الدائرة وتمتد أواصر الود ، ويصير المجتمع أكثر ترابطا ،فـ"السلام داعية المحبة ،وآية الإخاء والألفة ، وقد أمر الله به في القرآن في عدة مواطن ، وبين أنه تحية من عند الله مباركة طيبة ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾[٣٢] وهو شعار أهل الجنة ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[٣٣]"[٣٤]

ويلاحظ أن لطباق السلب في (عرفت)و (لم تعرف) فائدة معنوية هي الدلالة على الشمول ،فالطباق مستدعى من قبل المعنى ليدل على شمول السلام للمعرفة وغير المعرفة ،فتحسينه ذاتي لا يُستغنى عنه .

ولبنية التقابل هذه دورها في التأثير في نفسية المتلقي ،ولفت انتباهه إلى مواطن الجمال ، وتحقيق الترابط والتماسك للنص .

كما أن للنص جرسا وتنغيما يستميل الآذان، لتجد المعاني طريقها إلى التمكن في الأذهان ، فتنفعل النفوس، وتتعظ القلوب ، هذا الجرس جاء من السجع في قوله (تطعم الطعام،وتقرأ السلام) وجناس الاشتقاق في (تطعم الطعام) الذي يبرز دوره في الربط بين المستويين الصوتي والدلالي، مما أضفى على الحديث ثراء

---

٣٢) سورة النور (٦١)
٣٣) يونس(١٠).
٣٤) الأدب النبوي ص١٦٤.

إيقاعيا واضحا،كما أن الوقوف على بنية السجع في الفواصل يظهرها دلاليـــا، إذ يكون الوقوف على كلماتها داعيا إلى استكناه معانيها والتركيز عليها وتحصـــيلها وامتثالها.

هذا ، وطريقة عرض الحديث هي الحوار بماله من حيوية ،وما له من تأثير على المتلقي ،إذ تنتفي عنه رتابة السرد ،بل ويكون معه المتلقي مترقبا الرد من أحد طرفي الحوار " وهو وسيلة مهمة من وسائل الدعوة العملية الواقعية التـــي لجأ إليها الرسول ﷺ كوسيلة تعليمية لها غايات وأهداف محددة ،ليســـتطيع مـــن خلالها التعرف على واقع الصحابة النفســـي والفكـــري والاجتمـــاعي، ومعالجـــة القضايا ...والإجابة على بعض الأسئلة وغيرها ،.....أما المهارات التي يقصـــدها الحوار فهي تكمن في توجه القدرات والطاقات ...وإيقاظ الهمم "[٣٥]

فالرسول ﷺ في هذا الحديث يوجه القدرات ،ويوظف الطاقات ، ويحفز الهمم لتحصيل هاتين الخصلتين العظيمتين : إطعام الطعام ،وإفشاء السلام .

عن أبي أيوب عن النبي ﷺ قال : (لا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجرَ أخاه فوقَ ثـــلاث يلتقيان ،فيصدّ هذا ،ويصدّ هذا ، وخيرُهما الذي يبدأ بالسلامِ)[٣٦]

يبدأ الحديث بتنفير المسلم من هجر أخيه بالصيغة الخبرية التي تقرر وتؤكد حرمة الفعل ؛ حتى يتحاشى المسلم الوقوع فيه .

ولمزيد من التحذير أتى بقوله (لمسلم) دون (شخص أو إنسان أو أحد مثلا) ليلقي في روع السامع انتفاء الإسلام الحقيقي عمن يأتي فعل الهجر والقطيعة ، ثم جاء فاعل (يحل) مصدرا مؤولا (أن يهجر) ليجعل ممارسة الفعل ماثلة في الأذهان فتتخيل العقول بشاعتها ، وتستحضر عظم الذنب ، وترتب عليه شدة العقاب ،بـــل وزاد في ذلك بأن جعل مفعول (يهجر) (أخاه) يالـه من جرم حين يكون من يُهجـــر

---

٣٥) البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية . ص٣٧٠،٣٦٩.

٣٦)البخاري ، كتاب الاستئذان ، باب السلام للمعرفة وغير المعرفة ٨٧/٤

الأخ الذي أرتبط به بروابط كثيرة ، وأتصل به بوشائج قوية ،كيف يسوغ لـــي أن أمزقها !؟بل إن مجرد التخلي عنها ليعد فحشا .

إن التعبير بالأخ يخاطب المشاعر والأحاسيس، ويلمس وترهـــا الحســـاس، ويستدعي استجابتها .

وتتجلى بلاغة الحذف في قوله (فوق ثلاث) إذ أتى ﷺ بالعدد وحذف المعدود ليطلق العنان لفكر السامع والمتلقي في تقدير المحذوف ؛ ليجتنب الهجر ولو لأقل معدود ، فيكون أدعى للامتثال .

كيف يهجر المسلم أخاه !؟والحال أنهما (يلتقيان) يتجدد التقاؤهما ويتكـــرر ، وهذا من شأنه أن يرقق القلوب، كيف يتأتى الصدود ؟ (فيصد هذا ،ويصد هذا) كل منهما يأخذه الإباء والمنعة ، ويتوهم أن لين الجانب لأخيه ضعف وتراجع ،كلا بل الضعف في الهجر والتفكك ،والقوة في الوحدة والتحاب ،لقد وصف الله المؤمنين بقوله ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾(٣٧)

وقوله : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٣٨)فلتخفض جناحك للمؤمنين .

وقد آثر ﷺ التعبير بالمضارع (يصد) استحضارا للحال ،ليستقبحها الســـامع وينفر منها ،وفي هذا ترغيب في الصلح وتنفير من الهجر وحث على الوصـــال ، والتعبير باسم الإشارة تمييز للطرفين .

وحين يبدأ أحد المتخاصمين الآخر بالسلام تثبت له الخيرية والتفـــوق فـــي التغلب على وسوسة النفس والشيطان (وخيرهما الذي يبدأ بالسلام) وهكذا يصدر ﷺ حكمه للبادئ بصلة أخيه ؛ ترغيبا في نبذ الهجر والفرقـــة، ودعـــوة للوحـــدة والالتئام .

---

٣٧) الفتح ٢٩.
٣٨) المائدة ٥٤..

ويلاحظ أنه عبر بالاسم الموصول (الذي) ليقرر الغرض المسوق له الكـــلام، حتى يتسنى لصلة الموصول الإبانة عن حسن فعله واستحقاقه الخيرية .

وللحديث إيقاع لفظي مؤثر جاء من تكرار جملة (يصد هذا)هذا التكرار أفاد أيضا التركيز على السلوك المستهجن ،وإبرازه في بؤرة الاهتمام ؛لتنبيه الســـامع إليه .

وعليه فقد جمع الحديث بين السهولة والوضوح والإيجـــاز وجـــودة الســـبك وحسن الوقع ،فتضافرت فيه مقومات الحسن اللفظي والمعنوي ،يقول الجـــاحظ : "ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ،ولا أقصد لفظا ، ولا أعدل وزنا ،ولا أجمـــل مذهبا ،ولا أكرم مطلبا ،ولا أحسن موقعا ،ولا أسهل مخرجا ،ولا أفصح معنى ،ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ "[٣٩]

---

٣٩) البيان والتبيين . الجاحظ ،تحقيق /عبد السلام هارون ،ط ٥ الخانجي –القاهرة ١٩٨٥ م،١٧/٢

المسئولية والرعاية

عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أن رسولَ الله ﷺ قال: (ألا كلُّكم راعٍ ،وكلُّكم مسئولٌ عن رعيَّتِه ،فالأميرُ الذي على الناس راعٍ وهو مسئولٌ عن رعيَّتِه ،والرجلُ راعٍ على أهلِ بيتِه وهو مسئولٌ عن رعيَّتِه ،والمرأةُ راعيةٌ على أهلِ بيتِ زوجِها وولدِه وهي مسئولةٌ عنهم ، وعبدُ الرجلِ راعٍ على مالِ سيدِه وهو مسئولٌ عنه ، ألا فكلُّكم راعٍ ، وكلُّكم مسئولٌ عن رعيَّتِه)[٤٠]

"يعلق الحديث مسئولية الرعاية على الفرد ، هذا ما يتبادر إلى الذهن من خلال الإطار والمضمون ،ولكن عندما نتبصر المعاني التي يرمي إليها ،نجد أنه ينطلق بنا فى آفاق واسعة. من حيث وضع الفرد والمجتمع في تحليهما بمعرفة مالهما ،وما عليهما ،فسياق الحديث من باب التنبيه بالأقل على الأكثر ، إذ مفهوم الرعاية يعني الأمانة ، وحفظ قواعد الشريعة .....وليس هذا مقصورا على فرد دون آخر ، بل على كل فرد من الأمة واجب اجتماعي يقوم على دفع المضار عن الرعية، وجلب المصالح لها في حدود ما آتاه الله"[٤١] وعليه يجعل كل شخص راعيا ومرعيا في آن واحد ، وبذا يتحقق التوحد والتكامل والتكافل للمجتمع كله.

ويبدأ نص الحديث بـ(ألا) الاستفتاحية التي غرضها التنبيه والتشويق إلى ما يُلقى بعدها لأهميته ؛ليأخذه المتلقي بعناية ، ويضعه في عين الاعتبار، إذ القضية مهمة ، يترتب على التفريط فيها تبعات تثقل الكواهل ، وكفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول .

---

٤٠) صحيح البخاري ،كتاب الأحكام ، باب قول الله – تعالى –(أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) ٢٣٣/٤.

٤١) الخصائص الفنية في الأدب النبوي ،ص ٦٩،٧٠.

ثم يتبع بصيغة العموم والشمول (كلكم راع) بلا استثناء، كلٌّ في موقعه راع؛ لنستشعر جميعا المسئولية الملقاة على عواتقنا ، ونعمل على الإيفاء بمستحقاتها، ونستعد للسؤال عنها في اليوم الأعظم .

(وكلكم مسئول عن رعيته) لن يُسترعى أحدكم ثم يُترك سدى ، لابد من المحاسبة والسؤال: هل اتقى الله في رعيته ؟هل أحاطها بنصحه ؟ هل عمل على جلب المصالح لها ودرء المفاسد عنها؟ هل وحد شمل أفرادها؟ هل جمعهم على التقوى ؟.....؟

وقد عبر باسم المفعول (مسئول) لتربية المهابة في نفس المتلقي ؛ ليعلم أن السائل عظيم ولا مفر من السؤال ،فهو مسئول حتما لا محالة ، فقد عرض اسم المفعول ما سيقع مستقبلا في صورة الواقع ، وهذا من قبيل الخروج عن مقتضى الظاهر الذي لا يكون إلا لنكتة .

وبعد الحكم العام المجمل ،شرع في التفصيل بقوله (فالأمير على الناس راع) فهذا تفصيل بذكر بعض أفراد (كلكم) ففي الحديث إطناب طريقه التفصيل بعد الإجمال ، أفاد الاعتناء بالمذكور من الأفراد ، والإلماح إلى أنه أهم أفراد العام ، وبصلاح أمره يصلح أمر البقية، فالأمير والزوج والزوجة نماذج متكررة في المجتمع ، لو عرف كل فرد منها ما عليه تجاه رعيته ، لعمّ الحنو والاحتواء المجتمع كله ، كما أن الإخبار ببعض النماذج يعطي الأسوة لغيرها وإن لم ينص عليها .

وقد بدأ بالمسئولية الكبرى ،مسئولية الأمير أو الحاكم لأن تبعاتها أكبر وأكثر تشعبا من غيرها ، ولأن الحكم مطمع للكثيرين ، فقبل أن يطلب أحدكم الولاية والحكم ،عليه أن يفكر جيدا :هل يستطيع القيام بأعبائها ؟ هل لديه القدرة على تحمل تبعاتها والوفاء بحقوقها ؟

ثم قدم مسئولية الرجل على مسئولية المرأة لما له من قوامة تلقي بالعبء الأكبر على كاهله ، ولأنه ولي البيت وحاكمه ، وألقى مسئولية على المرأة لأنها مستأمنة على البيت والمال والولد ، فلا بد أن تحفظ الأمانة وترعاها ،وتجمع أولادها على البر والتقوى ، وتربيهم على التحاب والإيثار ، وتغرس في نفوسهم قيم الإسلام النبيلة ، وحرص المشرع على التعاون والوحدة والالتئام .

ويحمِّل النص العبد الأمانة في مال سيده ؛ ليحسن التصرف فيه ، فلا يكون منه إلا التصرف الحلال ، ولا يحمله فقره على الطمع فيه ، بل إنه ليسأل عن التصرف الحلال : هل أسرف فيه أو اعتدل؟

وهكذا جاء الحديث في نسق وترتيب بديع ؛ إذ بدأ بالمسئولية الأعم الأكبر وانتقل إلى الأخص والأصغر نسبيا .

ويرد ﷺ عجز الحديث على صدره، فيكرر مطلعه في نهايته (ألا فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته) ليزيد في التأكيد والحث على الإحاطة بالرعية ، وفي تكراره ﷺ هذه الجملة حرص منه على التبليغ ، وتأكيد لشعوره برعيته والمسئولية عنهم ، ليعطي القدوة للمخاطبين عن طريق التطبيق العملي .

هذا ، وقد وظف التكرار توظيفا سديدا ، قرر المعنى وأكده أتم ما يكون التأكيد، وجعل الرعاية محور الحديث وأهم ما يُعنى به المتكلم ،ووحد بنية النص، وجعل ألفاظه يذكر بعضها ببعض ، ورسخ في ذهن السامع عظم المسئولية عن الرعية ، وثقل الأمانة على الراعي .

ولبنية التقابل في نص الحديث أثر في توضيح المعنى ؛ إذ بضدها تتمايز الأشياء ، فقد قابل الرجل بالمرأة والعبد بالسيد ، إذ عندما يُتحدث عن مسئولية الرجل تخطر بالبال المرأة ماذا عن مسئوليتها؟ فجاء بها النص ، استدعاها ذكر الرجل فلربما توهم أن المسئولية بعنق الرجل ، والمرأة منها براء،فنص الحديث

على التكامل بين مسئوليتيهما ، وأن بكليهما تستقيم شئون البيت والأسرة التي تمثل وحدة من وحدات المجتمع ، فلو استقامت كل أسرة لصلح المجتمع بأسره .

أما الطباق بين (العبد) و(السيد) فلتذكرة العبد بسيادة مولاه وفضله وإنعامه عليه ، وأنه يعوله ويقوم على نفقته ، فما كان ليخونه في ماله ، وليكن عند ثقته به ، إذ من هذا المال يطعم ،ومنه يُوسع عليه وعلى أهله ، وصاحب المال يتولى أموره ويرعاه ، ويعوله من كل وجه ، فهذا هو المعنى الحقيقي للسيادة لا التسلط والغلظة.

هذا ،واتحاد الفاصلة (رعيته) في فقرات الحديث ،أضفى على النص تأثيرا إيقاعيا جاذبا للآذان ،أكد لدى المتلقي معنى اللفظ الموقوف عليه ، ليوليه مزيدا من العناية ، ويحس بحاجة الرعية إلى الراعي ، وبالتالي يعظم ويشتد سؤاله عند التقصير في حقوقهم فضلا عن التفريط .

عن معقل بن يسار – ﷺ – قال سمعت النبي ﷺ يقول : (ما من عبدٍ يسترعيه اللهُ رعِيةً فلم يَحُطْها بنصحِه لم يجدْ رائحةَ الجنَّة)[٤٢]

الحديث الشريف يحث كل من ولى أمر أحد فردًا كان أو جماعة أن يتقى الله فى رعيته ويجعل لها من نصحه سياجًا وحصنًا حصينا يقيها مسالك الشر والهلكة، ويوردها موارد الخير والنجاة ،وإلا حرمت عليه الجنة.

فالولاية أمر خطير عليه تبعات أكثر مما له من مزايا،فلا يقدمن عليها مختارًا إلا من وجد في نفسه القدرة والحنكة اللازمة لتدبير أمور من ولِّي عليهم، وإذا كان الحديث السابق قد أكد على مسئولية الراعي ، فإن هذا الحديث يبين عقوبته إذا أهمل .

---

(٤٢) البخاري ،كتاب الاستئذان ،باب من استرعي رعية فلم ينصح .

وتوجيه رسولنا الكريم ﷺ لكل من استرعى رعيـــة أن يحيطهـــا بنصـــحه ، حرص منه على التئام شمل الرعية ، وتوثيق العلاقة بينها وبين راعيها ، إذ يبرز في معرض الناصح الأمين الذي يجمع كلمتهم ، ويوحد صفوفهم .

ويبدأ لفظ الحديث بصيغة تدل على العموم (ما من عبـــد) (مـــا) النافيـــة ، و(من) المزيدة للتأكيد ،و(عبد) نكرة في سياق النفي ؛ ليفيد أنه لن يشذ من هذا الحكم أحد ،فهو حكم عام يشمل كل من فرط في حق من ولاه الله أمـــره ، ولفـــظ (عبد)أنسب للمعنى وأشد ائتلافا معه من (رجل أو إنسان ونحوهما) ليصغر أمره، فلا يتوهم أنه بالولاية صار سيدا .

ولنتأمل إسناد الفعل (يسترعيه) إلى لفظ الجلالة ببنائه للمعلوم ، ألا من سر وراءه ، ونكتة يراد الإلماح إليها ؟بلى ، إنه يلقـــي فـــي روع الســـامع المهابـــة والجلال ؛ليستحضر عظمة من استرعاه ، فيحسن إلى الرعية ،إذ وكلـــه فـــيهم ، وولاه عليهم من هو فوقه ، ربه ومليكه وولي كل شيء سبحانه .

وقد استعمل التصوير الفني لإيضاح المعنى وتقريره في النفوس " في الحديث صورتان : عبد يسترعيه الله رعية : أي يوليه أمرها ، وقوله :لم يجـــد رائحـــة الجنة :أي منع دخولها .....والحاكم الظالم لمحكوميه ظالم لنفسه ، لأن الراعـــي عندما يغش رعيته فلا يجعلها ترعى المرعى الجيد ، ولا يحميها مـــن الوحـــوش وعوارض الأذى،يصيبها الهزال والضعف والمرض ، ويدب إليها الهلاك ، وهـــذا كله إساءة إلى نفسه "[٤٣]وعليه فالصورة الأولى استعارة تمثيلية ، وهي صـــورة منتزعة من واقع البيئة العربية ،تقرب المعنى إلى الأذهان ،إذ تعرضه في صورة مقررة لديهم ،ممكنة في نفوسهم ،يمارسونها وتقع عليها حواســـهم. والصـــورة الثانية كناية عن حرمانه الجنة .

---

(٤٣) التصوير الفني في الحديث النبوي،ص ١٨١.

ولننعم النظر في قوله (فلم يحطها بنصحه) كيف جسد النصح ، وجعله يحيط بالرعية من جميع الجوانب بحيث لا يدع ثغرة ينفذ إليها منها مكروه، أو يتفلت منها خير ، فقد شبه النصح بحصن أو سور يضرب حولها بجامع المنعة ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الإحاطة على سبيل الاستعارة المكنية .

ثم لِمَ أوثر التعبير بالنصح دون النصيحة؟ لا بد أن ما عليه لفظ الحديث أبلغ، فقد عبر ﷺ بالمصدر ؛لأنه أعم وأشمل ، فهو يريد للرعية كل النصح .

ثم أضاف المصدر إلى فاعله (ضمير العبد) ليوحي بضرورة أن يكون النصح واقعا ، نابعا منه خالصا مخلصا لا يريد منه إلا الإصلاح .

ثم يأتي قوله (لم يجد رائحة الجنة) والتقدير " إلا لم يجد ،والخبر محذوف ، والتقدير : ما من عبد فعل كذا إلا حرم الله عليه الجنة ، و(لم يجد رائحة الجنة) استئناف كالمفسِّر له "[٤٤] وعليه، في الحديث إيجاز بحذف المسند المفسَّر بقوله (لم يجد رائحة الجنة) الذي يحمل بدوره صورة الكناية عن منعه من دخولها ، وحرمانه إياها ،ويلاحظ أن التعبير بالكناية أبلغ ،إذ زاد في إثبات المعنى وتأكيده.

والحديث –على وجازة لفظه – حوى العديد من الفوائد ، ووجه إلى ضرورة أن يكون كل وال ناصحا أمينا لرعيته ،يدفع عنها كل ضر ،ويحميها من كل أذى ،ويقيها مصارع السوء ومسالك الهلكة ،ويجلب إليها كل نفع ، ويوردها موارد النجاة ،ويوجهها إلى ما به تماسكها وعزتها ،ووحدتها وقوة شوكتها .

---

٤٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري .لابن حجر العسقلاني، تحقيق/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه / محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه /محب الدين الخطيب ،ط دار المعرفة – بيروت ،١٢٧/١٣.

وقد شكل ضمير الغائب رابطا أساسيا للنص ، فقد ذكر ضمير الغائب المتصل مرتين في(يسترعيه ، ونصحه) والمستتر مرتين في (يحط ،ويجد) ، ومكن من إسناد العقاب دون أن يواجه به المتلقي .

ولم يخلُ من الحسن البديعي ،فبين (يسترعيه) و(رعية) جناس اشتقاق جذب بجرسه الآذان ،فوقع المعنى موقعا حسنا من القلوب والأذهان .

حرمة المسلم

عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال :قال النبي ﷺ بمنى: (أتدرونَ أيُّ يومٍ هذا ؟قالوا : اللهُ ورسولُه أعلم ،قال فإن هذا يومٌ حرامٌ ،أفتدرون أيُّ بلدٍ هذا ؟ قالوا : اللهُ ورسولُه أعلم ، قال : بلدٌ حرامٌ ،أتدرون أيُّ شهرٍ هذا؟ قالوا:اللهُ ورسوله أعلم ، قال : شهرٌ حرامٌ،قال : فإنَّ اللهَ حرمَ عليكم دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم كحُرمةِ يومِكم هذا في شهركم هذا في بلدِكم هذا) [٤٥]

يبدأ نص الحديث بالاستفهام ؛ إثارةً لانتباه السامعين ،وإيقاظًا لحواسهم، وتشويقا لهم إلى ما سيلقى بعد ،ليعوه جيدا ،ويجعلوه على ذكر منهم .

نراه –ﷺ– يشوق أصحابه إلى معرفة ما يريد أن يعرض عليهم بسؤالهم عن اليوم ،ولذلك لم يجيبوا إجابة تحدد اليوم ،وإنما تركوا الأمر له ﷺ فكان جوابهم :(الله ورسوله أعلم) بإسناد العلم لله– تعالى – ورسوله، هذه الجملة التي توحي بالتسليم والخضوع لله ورسوله ، وإرجاء الأمر إليهما في كل شيء من شئونهم ، وترى لفظ الجلالة يضفي على الجملة الجلال والإعظام .

(قال :فإن هذا يوم حرام) يجيب ﷺ على سؤاله الذي وجهه إليهم بعد تنحيهم عن الجواب،فيعيد على أسماعهم اسم الإشارة (هذا) على الرغم من تقدمه في

---

٤٥) البخاري كتاب الأدب،باب قول الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم﴾٥٧/٤

السؤال وقيام القرينة عليه ،ليتميز المسند إليه في أذهانهم أكمل تمييز ،ويتقرر الحكم المسند إليه أتم تقرير ويتأكد أيما تأكد ،فإنه لا يشار إلا إلى معلوم وبالتالي لا يخطئه الحكم المسند فيُظن أنه لغيره .

وانظر إلى الخبر(يوم حرام) وهو يوم التروية الثامن من ذي الحجة، كيف ينبئ ﷺ عن عظم حرمته وخطورتها "فوصف اليوم بأنه حرام ليس وصفا على حقيقته ،وإنما هو مجاز ، لأن حرمة القتال تقع في ذلك اليوم "[٤٦] فهو مجاز عقلي علاقته الزمانية ،ويزيد في تعظيمه التعبير بـ(حرام) بدلا من اسم المفعول (محرَّم) فيجعله الحرام ذاته على سبيل المبالغة ،فضلا عن تنكير (يوم) الذي يفيد التفخيم والتعظيم أيضا .

ولا يخفى مجيء الخبر مؤكدا بـ(إن) واسمية الجملة اعتناء بالحكم الذي تضمنته .

ثم يفرع ﷺ سؤالا آخر (أفتدرون أي بلد هذا ؟)ليفتح أذهانهم ، ويحرك خواطرهم ويشركهم معه في الحوار،فيكون الجواب (الله ورسوله أعلم) أيضا ،ذاك أنهم يريدون أن يسمعوا منه،فيجيب ﷺ (بلد حرام)بحذف المسند إليه ؛مبادرة إلى المقصود،بتخطي العوائق إليه ، ولم يحتج إلى إعادته كما في الجواب الأول لأن حرمة البلد أظهر .والتعبير من قبيل المجاز العقلي لعلاقة المكانية .

ثم قال :(أتدرون أي شهر هذا؟) وكرروا الجواب نفسه ،ويعد هذا من تجاهل العارف ،وكأنهم لايريدون أن يقيموا الحجة على أنفسهم ،أو يؤملون تخفيفا فيقول ﷺ (شهر حرام)فيحذف المسند إليه أيضا ، إسراعا للوصول إلى الغرض ، وغني عن البيان ما يفيده التعبير بالنكرة (بلد،وشهر من التعظيم والتفخيم

---

٤٦) الرسول ﷺ واعظًا بليغًا .د.عبد القادر حسين ، مكتبة أوزيريس ،ص١٩١.

هكذا بثلاثة استفهامات متوالية لمزيد من اليقظة ،وتهيئة للمتلقين للغـــرض المنوط به النص ،وهو تعظيم حرمة الدماء ،والأموال ،والأعراض؛ ليلقـــي فـــي روعهم عظم الذنب المترتب على انتهاكها ،وشدة العقوبة عليه .

الاستفهام والحوار هما طريقة عرض الحديث ،إعمالا للأذهان، وإثارة للفكر ليقبل المتلقون على متابعة الحوار بقصد الوصول إلى معرفة الصواب والعمل به ،فالحوار طريقة فعالة في التعليم والتبليغ .

ثم يفرع ﷺ على ثبوت الحرمة لليوم والشهر والبلد إثباتها للدماء والأمـــوال والأعراض ،فيقول :(فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضـــكم كحرمـــة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا) فيلقي الجملة مؤكدة بـــ(إن) والاسمية ، مضفيا عليها جلال المحرِّم ،فاسمية الجملة تفيد الثبوت والدوام ،أي أن الحرمـــة ثابتة ثبوتا قطعيا دائما مؤكدا، وهذا يلمح إلى التحذير مـــن المخالفـــة ، وإســـناد التحريم إلى (الله) يجعل العبد يستحضر في نفسه جلاله وعظمته وإنعامه وإفضاله فيستحيي ويرعوي إذا ما حدثته نفسه بالتجاوز في شيء منها .

وما أجمل نسق المحرمات والربط بينها بـــ(واو) العطف التي تعني التشريك والمغايرة ،أما التشريك: فإن الدماء والأموال والأعراض تشترك فـــي الحرمـــة ، وبينها مراعاة نظير ،إذ جميعها مما يكره المرء استباحته في حق نفسه ، وتضن به طبيعة النفس البشرية ، وأما المغايرة : فلكل منها حرمة مستقلة ، الدماء على حدة ، والأموال على حدة ، والأعراض على حدة ،ولكل منها عقوبة على انتهاكها تختلف عن الأخرى .

وما ألطف تعريف الدماء والأمـــوال والأعـــراض بإضـــافتها إلـــى ضـــمير المخاطبين! إنها توحي بإرادة الشارع بهذا التحريم الحفاظ على المخاطبين وصون حياتهم وما يتعلق بها ، فهذه الدماء المحرمة ليست بغريبة علـــيكم ، إنمـــا هـــي دماؤكم ،والأموال التي يحذر من أكلها بالباطل أو التصرف فيهـــا تصـــرفا غيـــر

مشروع إنما هي أموالكم التي يراد انتفاعكم بها انتفاعا حلالاً مباركا فيه،والأعراض التي يخشى أن تلوكها الألسنة إنما هي أعراضكم التي يريد الشارع أن يحفظها ويسترها ويصونها بعيدًا عن أي محاولة لابتذالها أو الخوض فيها،ألا يريد لكم الخير !؟ أليس له من حكمة في تحريمها !؟

ولمزيد من تأكيد الحرمة، وتقريرها في نفوس المخاطبين يستخدم النظم الكريم الأسلوب التصويري، فيلحق حرمة الدماء، وحرمة الأموال ،وحرمة الأعراض كل منها على حدة ،بحرمة اليوم والشهر والبلد مطبقا بعضها فوق بعض ،عن طريق التشبيه " وكأنها حرمات ذات طبقات ثلاث بعضها فوق بعض مجتمعة ،دون أن يأتي واحد منها على الانفصال "[٤٧]هذا ما أوحى به قوله ﷺ (كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا) فحرمة اليوم داخلة في حرمة الشهر،وهما داخلتان في حرمة البلد،وهذا يؤكد حرمة الدم والمال والعرض، ويشعر أن كلا منها أعظم من حرمة اليوم منفردا،والشهر منفردا،والبلد منفردا،فكان لاستعمال حرف الجر(في) تأثير في المعنى،ودلالة لها خطرها،يفقدها النظم لو استعملت بدلا منها (واو) العطف .

ولولا أن حرمة هذه الأشياء ثابتة ومقررة فى نفوس المخاطبين لما جعلها النظم مشبها به، إذ معلوم أن وجه الشبه إنما يكون أعرف وأشهر في المشبه به، ليتحقق للمشبه إلحاقه به فيكتسب منه وضوحا في الأذهان ،يقول الإمام العيني : "إنما شبهها في الحرمة بهذه الأشياء؛لأنهم لا يرون استباحة تلك الأشياء، وانتهاك حرمتها بحال، وقيل :مثل باليوم وبالشهر وبالبلد؛ لتوكيد تحريم ما حرم من الدماء والأموال والأعراض "[٤٨]

---

٤٧) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص٣٦٣.

٤٨) عمدة القاري في شرح صحيح البخاري العيني،ط دار الفكر – بيروت،٣٥٩.

وفى التعبير باسم اللإشارة تعظيم للمشار إليه وتمييز له، وهذا بدوره يعظم ما ألحق به وهو المشبه؛لأنه كلما زاد الممثل به وضوحا زاد الممثل لأنه موضوع له ،والممثل مقيس به،فكلما عظمت حرمة اليوم والشهر والبلد عند المخاطبين وتميزت لديهم ، عظمت حرمة الدماء والأموال والأعراض .

ويلاحظ أن النص قام على الخطاب ، فقد تكرر ضمير المخاطبين ست مرات، وما ذاك إلا لأن الحديث يشرع ويؤصل لقضايا كبرى من شأن الحفاظ عليها أن يحفظ للمجتمع المسلم أمنه وسلامته ، والتئام لحمته ووحدة نسيجه ، الأمر الذي يتطلب وضع المنوط بهذه القضايا في المواجهة بحيث يضمن المتكلم يقظته وانتباهه ،ليستشعر خطورتها،ويحفظ لها جلالها وهيبتها،ويقدر عواقب تضييعها.

كما مثل الضمير رابطا قويا ووسيلة مهمة من وسائل تماسك النص ووحدة بنائه، يضاف إليه تكرار الحرمة ،وتكرار اسم الإشارة ، علاوة على ما يفيده التكرار من التأكيد ،إذ الحرمة هي بؤرة الاهتمام ،ومحور ارتكاز النص ،والحكم الذي يراد إثباته .

هذا،وقد جاء نص الحديث غنيا بوسائل الإقناع،حيث الاستفهام والحوار والتأكيد والتشبيه ،فقد بدأ ﷺ بالاستفهام ليثير الفكر نحو الفكرة ،وتدرج بالحوار ليمهد للحكم ،ولا يَبدَه أصحابه به دفعة واحدة ،ثم ألقى الحكم مؤكدا ،وأتبع بالصورة التشبيهية ليقرره في النفوس .

ولم يخلُ الحديث من حسن الجرس والتنغيم الذي يجعل ألفاظه تتردد في الآذان، فتعلق معانيها بالأذهان ،فلا يُنسى ما تضمنت من أحكام ،حيث السجع العفوي السلس ،والجمل المتوازنة ،والفواصل الموحدة (هذا)، وما كان الحسن إلا لأن المعاني اكتست ما يناسبها من المعارض ،يقول الإمام عبد القاهر " وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا ، ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي

طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلا ،ولا تجد عنه حولا"[٤٩] كيف !؟ والقائل هو من تنزل القرآن على قلبه ،ففاض من حسنه على لسانه، فنظمه ﷺ مستضيء بنظم القرآن ،فهو ينسج بقبس من نوره ،ويتكلم بإلهام من الله جل وعلا .

عن أبي بكرة – ﷺ – قال :قال رسولُ الله – ﷺ-: (إذا تواجهَ المسلمانِ بسيفَيْهما فكلاهما من أهلِ النارِ ،قيل : فهذا القاتل ، فما بالُ المقتول ؟ قال: إنَّه أرادَ قتلَ صاحبِه) [٥٠]

" القتل العدوان إثم كبير،وجرم عظيم ،توعد الله عليه بالعذاب الشديد في قوله :﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [٥١] وما كانت يد المؤمن الذي ملأ الإيمان قلبه،وفاض على جوارحه، لتمتد إلى أخيه بسفك دمه،وإزهاق روحه ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾[٥٢]وقد بين الرسول ﷺ في هذا الحديث أنه إذا تلاقى المسلمان بسيفهما أو بندقيتيهما أو مسدسيهما ....أو غيرها من آلات القتل فذكر السيف على سبيل التمثيل ،وأعمل كل منهما ما في يده للقضاء على صاحبه، والإيداء بحياته فالقاتل والمقتول في النار "[٥٣].

يأتي الحديث في صيغة خبرية غرضها التحذير من الإقدام على الفعل ،تعظيما لحرمة النفس والدم،حيث أكدت أن الحكم نافذ ، والعقوبة مؤكدة ،والعذاب ماثل

---

٤٩) أسرار البلاغة .عبد القاهر الجرجاني ،تحقيق/محمود شاكر ،ط أولى،المدني ١٩٩١م،ص١١.

٥٠) البخاري . كتاب الفتن ،باب : إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، ٢٢٥/٤.

٥١) النساء ٩٣.

٥٢) النساء ٩٢.

٥٣) الأدب النبوي .ص ١٩١.

حاضر ، وفيه تشديد على أن مابين المسلمين من وشائج حواجز منيعة لا يجوز الاقتراب منها فضلا عن تخطيها .

أما إذا تجرآ وتخطيا فالعقاب هو النار، لما كان العقاب جازما صارما عبر بـ(إذا) من بين أدوات الشرط لإفادتها اليقين ،فإذا تحقق الفعل على وجه اليقين فهذا هو العقاب،وليؤكد استحقاق الطرفين له عبر بـ(كلا) .

وجملة (تواجه المسلمان بسيفيهما) " كناية عن الاقتتال ،وذلك بعرض هذه الصورة المتحركة"[٥٤] صورة الطرفين وقد أشهر كل منهما سيفه في وجه الآخر استعدادًا لقتله ،ولمزيد من إعظام الأمر ،وتشديدا على خطورة الموقف عبرت هذه الرواية بالفعل (تواجه)الذي رتب الحكم على المواجهة بالسيف لأنها يترتب عليها القتل ،وخص السيف بالذكر لأنه أشهر أدوات القتل آنذاك ،فالحكم ليس قاصرا عليه وإنما يدخل في كل ما من شأنه أن يقتل .

ولما استغرب الحاضرون الحكم (قيل فهذا القاتل ،فما بال المقتول ؟) بني الفعل(قيل)للمجهول لعدم تعلق الغرض بالقائلين ؛إذ معلوم أنهم الحضور ،وإنما يتعلق الغرض بالمقول(فهذا القاتل) أي القاتل من أهل النار لأنه أودى بحياة القتيل (فما بال المقتول؟) كيف يُسوى بالقاتل في الجزاء؟ أيُسفك دمه ،وتُزهق روحه ويدخل النار؟ هنا يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي هو التعجب .

ويجيب ﷺ مبينا السبب :(إنه أراد قتل صاحبه) والإرادة يتسبب عنها الفعل لو سنحت الفرصة ،فهو -إذن كان ينوي قتل صاحبه إلا أنه بادره به ،فـ" لولا أن ضربة صاحبه عجلت بحياته وجدلته مضرجا بدمائه لكان هو السافك ،فكل منهما باء بإثمه ،واستوجب العقاب بجرمه "[٥٥].

---

٥٤) التصوير الفني في الحديث النبوي،ص ٤٥٨.
٥٥) الأدب النبوي .ص ١٩٢.

ولنتأمل الدقة في التعبير بلفظ (صاحب) كيف يوحي بأنه تخطى حرمة المسلم، وهتك حق الصاحب ،وواجهه مواجهة العدو ،كيف استباح ولم يردعه شيء!؟

ويلاحظ أن الجملة من الخبر الطلبي ؛إذ جاءت مؤكدة لتقدم السؤال ،لتزيل ما بالنفوس من حيرة ودهشة وتعجب ،وأوثرت (إن) لما لها من مزية في تعليل الحكم السابق ،يقول الإمام عبد القاهر في سياق حديثه عن (إن) " تراها تزداد حسنا إذا كان الخبر بأمر يبعد مثله في الظن "[٥٦] فالمخاطبون يبعد في ظنهم أن يجازى المقتول بالنار ،لذا جاء جوابه ﷺ مصححًا لفهمهم معللًا للحكم مشتملًا على التأكيد، وعليه فقد راعى ﷺ نفسيات المخاطبين – وهذا دأبه – ومقتضى حالهم ، فجاء المقال مناسبا للمقام.

ويتجلى في نص الحديث من وسائل الربط : الشرط الذي سبكت به الجملة الأولى سبكًا جيدًا ،فصارت كأنها كلمة واحدة ،لا يستطاع التوقف عند جزء منها حتى يتم المعنى بتمام الجزاء ،فللشرط تأثير محفز ومنشط للمتلقي يجعله لا يفتر حتى يعلم الجزاء .

فإذا انتهت جملة الشرط وجوابه ،جاء الحوار الذي أثاره الحكم (فكلاهما من أهل النار)ليتساءل الناس (فهذا القاتل ،فما بال المقتول؟) فيجيب المحاور الأعظم :(إنه أراد قتل صاحبه)،وللحوار دوره في إضفاء الحيوية على النص ،وإيقاظ حواس المتلقي ،وإثارة انتباهه .

---

٥٦)دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجاني،تحقيق /محمود شاكر ،ط ٣ الخانجي ١٩٩٢م، ص ٣٢٥.

من حقوق المسلم

بسبعٍ: عن البراء بن عازب – ﷺ – قال: أمرنا رسولُ اللهِ ﷺ (أمرنا بعيادةِ المريضِ،واتباعِ الجنازةِ ،وتشميتِ العاطسِ ، وإبرارِ القسمِ ، ونصرِ المظلومِ ، وإفشاءِ السلامِ ، وإجابةِ الدّاعي)[٥٧]

أمر الرسول ﷺ المسلمين بسبع خصال ، ما منها إلا مقرب للقلوب مؤلف بينها، داعٍ إلى المحبة والتلاؤم، دال على التكاتف والتعاضد على الوجه الذي يحقق وحدة الصف، وجمع الكلمة ، ولم الشمل .

وأول ما يطالعنا من بلاغة الحديث تعبير الصحابي بقوله: (أمرنا) والأمر بهذه الخصال يدل على النصح بها ، والإرشاد إليها والترغيب فيها ، لما فيها من خير المسلمين ، وغني عن البيان أن جملة (ﷺ) اعتراض قصد به الدعاء .

ولعظم هذه الخصال وما تدره من خير على المجتمع المسلم ، نجده يتوخى تنكيرها في قوله (بسبع) وإبهامها بحذف المعدود إبهاما يؤدي إلى التشويق والتفخيم ،فأي سبع هذه التي يأمر بها رسولنا الكريم ؟ لا بد أن لها من المكانة ما يجعله يعظم أمرها لذا يوجه المسلمين إليها .

وتأكيدًا للتوجيه إلى هذه الخصال يكرر الفعل في قوله (أمرنا بعيادة المريض) هذه واحدة من السبع هي زيارة المريض للتخفيف عنه ،ومواساته والدعاء له، فهذا يشعره بمشاركة إخوته له ، فيعزز حالته النفسية ويقويها لمناهضة المرض وعدم الاستسلام له حتى التغلب عليه، و(أل) في (المريض) للجنس ،لتعم المرضى جميعًا أقرباء وغرباء ، أقوياء وضعفاء ، سادة القوم وعامتهم من جميع البشر علينا أن نعودهم لنخفف من آلامهم .

---

٥٧) البخاري، كتاب النكاح ،باب حق إجابة الوليمة والدعوة ،٢٥٥/٣، وكتاب الاستئذان ، باب إفشاء السلام ٨٧/٤.

ثم قد يؤدي المرض إلى الموت ،لذا أتبع بقوله (واتباع الجنازة) فإذا كان علينا زيارته في مرضه حيًّا ، كان حقا علينا اتباع نعشه ميتا ،ففي ذلك وفاء له ، ومواساة لأهله ، وعظة لأنفسنا بتذكر الموت والعمل لما بعده ،وتحصيل لأجر المسير خلفه وثواب الصلاة عليه ،وآثر التعبير بلفظ (اتباع) دون غيره ، لأن المشي خلف الجنازة أجلب للعظة والاعتبار .

(وتشميت العاطس) الدعاء له بالرحمة بعد حمده الله على هذه النعمة التي نفست عنه وأخرجت ما يؤذيه ، " وإنما يحمد العاطس شكرًا لله على نعمة العطاس الذي أذهب عنه الضرر فإنه يخرج الأبخرة المحتقنة في الدماغ ،التي لو بقيت فيه أحدثت أدواء عسيرة ،وسلامة أعضائه والتئامها بعد هذه الرجة الشديدة نعمة أخرى تستدعي الحمد "[٥٨]

وتشميت العاطس من شأنه أن يؤلف بين القلوب ،إذ يبادله العاطس بالدعاء بالهداية وصلاح البال .

ومن حقه عليك أن تبر قسمه إذا أقسم ، ولا تفعل ما يحنثه ،تعظيما لحقه، ورعاية لحرمة اليمين (وإبرار القسم) بهمزة التعدية ؛لئلا يقتصر المسلم على أن يبر قسمه ،وإنما يتعدى ذلك إلى إبرار قسم غيره .

و(نصر المظلوم)بأن تقف إلى جواره لترد إليه حقه المسلوب ،وتكف عنه بطش الطاغين الجبارين، الذين يجدون في الضعفاء أرضًا خصبة لممارسة الظلم، فهلا من قوي عادل يدفع بطشهم ، ويرفع ظلمهم ، ويلملم جراح المظلومين ، ويمسح أساهم .

(وإفشاء السلام) داعية المحبة والوئام ،ووسيلة توطيء الأكناف وتليين القلوب فصيغة (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) خبرية تدل على الدعاء بأن

---

٥٨) الأدب النبوي ص ١٦٥.

تصحب المسلَّم عليه السلامة والرحمة والبركات من الله -تعالى- وما أعظمها من نعم ! وما أجل المنعم !

هذه الصيغة حين نعمل على إفشائها ونشرها ،ويكون تعاملنا بها مع من عرفنا ومن لم نعرف ،نحقق مجتمعا متماسكا ،وطيد الصلات ، قوي الأواصر متلاحم العرى .

وعليك بـ(إجابة الداعي)ففيها توقير له ،وحرص على إرضائه ، وتطييب لخاطره ،ومشاركة له في سروره بالنعمة التي من أجلها أقام وليمته ودعا إليها ، فكما أن عليك مساندة أخيك المسلم في الضراء ،عليك أيضا مشاركته الفرحة في السراء ،وذلك توثيق للمحبة ،وتعميق للمودة " فإن أجبت أخاك إلى دعوته برهنت بعملك على حبك له ،وأن ما حل به من النعم كأنما حل بك ،وإن رفضت الإجابة بلا عذر أحزنت نفسه وأوغرت صدره ،وعرضت الصلة للقطع أو الضعف ، بل ربما سبب ذلك عداء وخصاما ، فلتقوية الصلات ومنع الحزازات أمرنا الرسول ﷺ بإجابة الدعوة "[٥٩].

"والأمر في هذه الأشياء السبعة يفيد الترغيب فيها وعدم النكوص عليها"[٦٠] فرسولنا الحبيب - ﷺ يحثنا على السعي في تحصيلها ؛ لنحقق مجتمعا متعاونا متماسكا يباهي به الأمم .

وقد جاءت اعمال البر والصلة في لفظ الحديث بصيغة واحدة هي صيغة المصدر المضاف إلى مفعوله (اتباع الجنازة ،وتشميت العاطس ،....) صيغة اسمية لتفيد الثبوت والدوام ، وأن الفعل قد وقع على المفعول وأصاب الغرض.

وقد تجلى في الحديث من علاقات السبك التركيبي ،العطف وهو رابط تركيبي يربط بين عنصرين بينهما ارتباط دلالي ، وله دور كبير في تحقيق تماسك النصي

---

٥٩) المرجع السابق ص ١٦٣.
٦٠) الرسول ﷺ واعظا بليغا ص٢٣٠.

في الحديث ، وقد تحققت فيه تبعية العطف بالتشريك بواسطة حرف العطف (الواو) الذي ربط بين مفردات الحديث ربطا يفيد المشاركة والتغاير ، فالمشاركة جاءت لوجود مناسبة بينها ، إذ جميعها من فعال الخير التي تؤلف بين القلوب والتي أمر بها الرسول ﷺ بدلالة قول الصحابي (أمرنا) فجميعها مأمور بها .

والتغاير من حيث استقلال كل منها بمعناها ، وما يتطلبه تحقيقها من سلوك وإجراءات ،أقوال أو أفعال .

وهكذا، اتسم الحديث بحسن النسق ، إذ جاءت هذه الخصال معطوفا بعضها على بعض في ترتيب حسن ،متعانقة الألفاظ، واضحة المعاني، في انسجام بديع، وانسياب على اللسان كما ينساب الماء، مع ملاءمة كل لفظ لمعناه ، ووضعه موضعه اللائق الذي لا يصلح فيه غيره ، فضلا عما لكل لفظ منها من رونق الفصاحة وطلاوة البيان .

عن أبي هريرة – ﷺ – أن رسول الله ﷺ قال : (إياكم والظن ، فإن الظنَّ أكذبُ، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تناجشوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا)[٦١]

يبدأ الحديث بقوله ﷺ (إياكم والظن) هذه الصيغة التحذيرية التي تجذب انتباه المخاطب وتدعوه ليستنبط معنى الجملة ، ويعي المحذَّر منه ليجتنبه ، إذ يحذر النبي ﷺ من داء عضال يفرق جمع الإخوة ، ويشتت شملهم ، ويفقد ثقة بعضهم ببعض ، فلا تظن أيها المخاطب شرا بأحد ، ولا تبنِ حكما على غير يقين ،أو بدون تمييز بين حق وباطل ، بل كن دائما على حذر من الظن .

ويبين ﷺ عن سبب التحذير فيقول :(فإن الظن أكذب الحديث) فيأتي بـ(فاء) السببية ويؤكد الخبر بـ(إن) واسمية الجملة لتقدم ما يلوح بحكم الخبر (إياكم

---

٦١)البخاري ، كتاب الأدب ، باب قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن) ٤/٦٠.

والظن) فكأنه قال (احذروا الظن) فاستشرف المخاطب أن يسأل : لماذا نحذر الظن؟ فجاء الجواب مؤكدا.

وفي هذا الأسلوب على ما فيه من بلاغة الإيجاز وإغناء المخاطب عن أن يسأل ،مراعاة منه - ﷺ - لأحوال السامعين،ودراية بنفسياتهم وما يجيش في صدورهم،ويدور في خلدهم،لذا يبين السبب قبل أن يصدر عنهم السؤال عنه.

وفيه وضع للمظهر موضع المضمر ، إذ كا ن بإمكانه أن يقول : فإنه أكذب الحديث ، إلا أنه عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر لمزيد من تمكين المسند إليه في ذهن السامع ،فبنية التكرار هذه تبرز الكلمة صوتيا ودلاليا ، وتدفع المتلقي إلى أن يوليها عنايته .

وما أروع تعبيره بصيغة (أفعل) التفضيل في الخبر (أكذب الحديث) إذ يدل على كمال صفة الكذب الممقوتة في الظن ، حتى إنه فاق سائر أجناسه ، وترأس كل أفراد الحديث فيها "واستشكل ذلك من جهتين : الأولى : أن الظن ليس قبيل الحديث حتى يكون أكذبه ، بل هو عمل نفسي ، والثانية : أن تعمد الكذب الذي لا يستند إلى ظن أصلا أشد من الأمر الذي يستند إلى الظن ، فكيف يكون الظن أكذب الحديث؟ والجواب عن الأولى: أن الظن حديث نفسي ، فيوصف بالكذب إذا لم يطابق الواقع ، أو أن المراد ما ينشأ عنه من الكلام [وحينئذ يكون من قبيل المجاز المرسل لعلاقة السببية] والجواب عن الثانية : أن وصفه بذلك للإشارة إلى أن المراد ظن لا يعتمد على شيء ، فهو لا يطابق الواقع ؛ فكان لذلك كذبا ، وكان أكذب الحديث لأن الاعتداد به أكثر من الكذب المحض لخفائه في الأكثر ووضوح الكذب المحض ، أو أن وصفه بالأكذبية مبالغة في ذمه لأن الكذب معروف ، وصاحب الظن معتمد في زعمه على شيء ، فكأنه في نظره غير قبيح ، فقبحه

بوصفه [بأكذب الحديث] تنفيرًا منه "[٦٢] فهذه مبالغة تهدف إلى تنفير الناس عن الظن وحديث النفس ، وتحدو بهم إلى ما تحقق لديهم ، وكانوا على يقين من صحته .

ثم ينهى ﷺ عن فعال ذميمة من شأنها أن تفرق شمل المسلمين ، وتفكك وحدتهم ،وتنشر البغضاء بينهم (ولا تحسسوا، ولا تجسسوا ،...) أولها يعني لا يتتبع بعضكم أخبار بعض بطريق التطفل والفضول ، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ،ففي اللسان " تحسس الخبر : تطلبه وتبحثه ، وقال أبو معاذ : التحسس : شبه التسمع والتبصر "[٦٣] فلا يقحمن أحدكم نفسه في شئون غيره ، فيعود عليه فعله بما يكره مما من شأنه أن يفسد العلاقة بينكم ، ويعكر صفو الإخاء ، ويثير الشحناء .

ثم يتبع بذكر الخاص بعد العام إذ ينهى عن التجسس الذي هو تتبع العورات على الخصوص لا مطلق الأخبار ، وهو بذلك يريد التنبيه على عظم خطره إذ يخصه بالذكر بعد دخوله في عموم جنس التحسس لما فيه من هتك الستور وكشف المعايب ، وفي الكشاف " المراد النهي عن تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه ، وعن النبي ﷺ أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن قال: يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ، لاتتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته "[٦٤]

---

٦٢) الأدب النبوي ص ١٣٥،١٣٦.

٦٣) لسان العرب لابن منظور ،تحقيق/أمين محمد عبد الوهاب ، ومحمد الصادق العبيدي ،ط ٣ إحياء التراث العربي –بيروت ١٩٩٩م،١٧٠/٣.

٦٤) الكشاف .للزمخشري ط دار الفكر ٣ /٥٦٨.

وتراه ﷺ لحرصه على ما فيه صلاح أمته ، وتمسكها وجعلها على قلب رجل واحد ، ترا ه يتبع النهي النهي والتحذير التحذير ليستقصي كل ما من شأنه ان يفسد ذات بينها ،ويمزق وحدتها ،ويضعف شوكتها، فينهى هذه المرة عن النجش (ولا تناجشوا) أي لا يزايد بعضكم على بعض فيلحق ضررا ماديا بأخيه المسلم، إذ كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، فالتناجش " الزيادة في السلعة أو المهر ليسمع بذلك فيزاد فيه...قال أبو عبيد : هو أن يزيد الرجل ثمن السلعة وهولا يريد شراءها ولكن ليسمعه غيره فيزيد بزيادته "[٦٥] فمال المسلم له حرمة يجب الحفاظ عليها ، من ينتهكها بأي شكل من الأشكال آثم لا محالة .

وليحب أحدكم لأخيه ما يحب لنفسه فـ(لا تحاسدوا) لا يتمنى بعضكم زوال نعمة بعض ، وليطهر قلبه من هذا الداء الذي ليس له ثمرة إلا الحقد والضغينة ونشر البغضاء ، وليكن ما بينكم غبطة يريد أحدكم أن يكون له مثل ما لأخيه من النعم دون ما حقد على الآخر .

وثمرة كل ما تقدم من النهي عن التحسس والتجسس والتناجش والتحاسد أن (لا تباغضوا) فليكن ما بينكم حبا ليس إلا ، ولتعمكم المودة والإخاء، لتكونوا يدًا واحدة حربا على أعدائكم ، فالتباغض يسبب الفرقة والانقسام والتدابر فـ(لا تدابروا) ولكن كونوا متقابلين بالبشر والسماحة والطلاقة ، فهذا يزيد أواصر المحبة ووشائج القربى توثقًا واتصالا .

ثم يجمل هذا كله ويحصي نتيجته في قوله (وكونوا عباد الله إخوانا) فإنهم إذا امتثلوا وانتهوا عن كل ما نهى عنه ،تحققت الأخوة بينهم أتم ما يكون التحقق، وهذا ضرب من الإطناب طريقه الإجمال بعد التفصيل وظفه ﷺ لخدمة الغرض واستقصاء المعنى حتى تؤتي الموعظة ثمارها .

---

٦٥) لسان العرب ١٤/٥٤.

ونلاحظ أنه استخدم الأمر الدال على النصح والإرشاد وتوجيه الرعية إلى ما فيه صلاح أمرها " أي كونوا كإخوان النسب في الشفقة والرحمة والمواساة والنصيحة كما أمر الله في قوله﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ الحجرات

فإنه وإن كان خبرًا فإنه في معنى الأمر، والغرض أن يكون الشعور بين أفراد المسلمين كالشعور بين أفراد الأسرة الواحدة ، يسعى كل فرد في مصلحة الآخر ودفع الضر عنه، فإن رابطة الإيمان فوق رابطة النسب ...وهذا يستدعي المحبة والمودة والرفق والشفقة والملاطفة والمؤانسة، والتعاون في الخير، مع صفاء القلوب وبذل النصيحة "[٦٦]

وقوله (عباد الله) يحتمل النداء بحرف محذوف ، والتقدير :يا عباد الله ، وحذف حرف النداء دلالة على قربهم منه ، وتلهفه ﷺ على بلوغ الموعظة إليهم، واعترض بجملة النداء بين اسم (كان) وخبرها مبالغة في التنبيه ، ولبنية الاعتراض هذه أثرها في المعنى إذ توحي بأن من يكونون عباد الله وقد تحققت فيهم العبودية الحقة جديرون بأن ينبذوا الخلاف ويحصلوا الأخوة الحقة فيما بينهم .

ويحتمل أن يكون خبرًا بعده خبر "أي عاملوه بالعبودية،وفيما بينكم بالأخوة، .....وللاهتمام بشأن العبادة قدم الأول ، ولأنه يستلزم الثاني "[٦٧]

والكلام على تشبيه العلاقة التي تجمع بين المسلمين بأخوة النسب والدم ، ووجه الشبه :هو اللزوم والحب والمعاونة والتعاضد والتآزر والدفع والذود....

وكما ترى التشبيه مؤكد مجمل لتقوى دعوى اتحاد الطرفين ، ولتذهب النفس في تقدير الوجه كل مذهب .

---

٦٦) الأدب النبوي ص ١٣٧.
٦٧) حاشية السندي ٤/٦٠.

وقد وصلت الجمل وعطف بعضها على بعض بالواو؛لاتفاقها في الإنشـــائية، وهو مايعرف بالتوسط بين الكمالين مع عدم المانع من الوصل .وقد مثل العطـــف رابطًا قويا لبنية النص إذ أدى إلى تماسكه وإحكام نسجه .

ويلاحظ أن ألفاظ الحديث متناسبة المعاني أتم ما يكون التناســـب فبـــين (لا تحسسوا) و(لا تجسسوا)....و(لا تدابروا)مراعاة نظير فكلها تأتي من وادٍ واحـــد لتصب في معين واحد .

كما أنه لا يخلو من الجرس والتنغيم الذي يستميل الآذان للإصغاء ، فبين (لا تحسسوا) و (لا تجسسوا) جناس لاحق ، فقد اختلفا في حرف مع بعد المخـــرج، وفيه موسيقى الجمل المتوازنة في هاتين الجملتين ، وفي قوله :(ولا تناجشـــوا ، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا) هذه الجمل كلها على وزن واحد، وهـــذا يجعلها تعلق بالأذهان ، وتتمكن معانيها من النفوس .

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على من به أُخرجنا من الظلمات ، صاحب البيان العذب ، والهدي المنير نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد

فإن السنة النبوية الشريفة زاخرة بما يضمن للإنسانية سعادتها في تحقيق المثل العليا والقيم الأخلاقية الرفيعة ، وإن ما أثر عن النبي ﷺ من قول يرمي إلى التئام المجتمع ووحدة الصف يتجلى متسمًا بقوة الأسلوب ووضوحه ، وصدق العاطفة وقدرتها على استثارة المشاعر ، فكان لحديثه ﷺ الخلود ، ولبيانه أعظم الأثر في تعلق القلوب ، وقد تبين لي من خلال البحث أن البيان النبوي عامة وفي هذه الأحاديث خاصة امتاز بما يلي :

- فصاحة الكلمات ، ووضوح الدلالة ، وقوة التراكيب اللغوية .

- ثراء الفكرة، وعمق المعنى، والنفاذ إلى النفس الإنسانية، وسبر أغوارها، ومعرفة ما يدور فيها ، وإيراد الخطاب ملائما لها ، في معالجة فذة لما يختلج في الصدور.

- استخدامه ﷺ للإشارة ، وحركة اليد ، وعبارات التنبيه ، والحوار ، والتكرار ، وأساليب التوكيد ، كل ذلك لإيضاح المعنى وتقريره وتوكيده ، حتى يبلغ الناس كافة .

- شيوع أسلوب الشرط ، للربط بين المعاني ، والربط بين أعمال المسلم والجزاء عليها .

- الغنى بألوان التصوير والبيان المنتزعة من البيئة ومن الواقع المجرب المألوف ، المقربة للمعنى، والمحركة للنفوس .

- عفوية بديعه ﷺ وسلاسته وأصالته في المعنى ، كيف !؟ وقد جاء في التنزيل : ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ ص: ٨٦

- سبق النبي ﷺ بالتطبيق العملي ما توصلت إليه مؤخرا نظريات علم اللغة الحديث من دور الإشارة والبيان الحركي في أداء المعاني ، وتأثيرها في النفوس، كما أنه طبق منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا ما يقول به علماء اللغة النصيون في حيوية وثراء يفوقان نظرياتهم .

وعلى الرغم من ذلك يبقى من البلاغة النبوية ما تحسه النفس ، وينشرح له الصدر ويعجز اللسان والقلم عن أن يبين عنه ، ولا غرو فإن " ما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه ، وتقصر مقاييسه عن مقياسه ، فنحن لا ندرك كنهه ، وإنما ندرك أثره ، ونحن لا نعلم إنشاءه ، وإنما نعلم خبره ، هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ؟ وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة ؟ وهل يجد في نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلال والروعة ؟ إن البلاغة النبوية هي المثل الأعلى للبلاغة العربية ، وإذا كان كلام الله هو الكتاب المعجز ، فإن كلام الرسول ﷺ سنة هذا البيان ، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول ، فإن البلاغة صفة محمد وحده "[٦٨].

حقا ، تقصر عنها موازين البشر ، وتعيا دونها الألسنة ، لكننا نريد أن نستلهم معانيها السامية ، ولغتها العذبة ، وأساليبها الراقية ، واستمالتها للقلوب ؛ لنغذي أرواحنا ، ونقوم مجتمعنا ، ونحقق ما يريده نبينا ﷺ من صلاح أمته .

---

٦٨) وحي الرسالة .أحمد حسن الزيات ، دار الثقافة- بيروت ١٩٨٥م ٣/٨١.

المصادر والمراجع

١- الأدب النبوي.محمد عبد العزيز الخولي،اعتنى به/عبد المجيد طعمة الحلبي،ط٢ دار المعرفة -بيروت ١٩٩٨

٢- أسرار البلاغة .عبد القاهر الجرجاني.تحقيق/محمود شاكر . ط١ المدني ١٩٩١م.

٣- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. الرافعي ،ط٨ دار الفكر العربي-القاهرة ١٩٩٥م.

٤- البرهان في علوم القرآن .للزركشي ،تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط٢ دار التراث-القاهرة .

٥- بغية الإيضاح.للشيخ عبد المتعال الصعيدى. نشر مكتبة الآداب ١٩٩٩م٠

٦- البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية. د.عزة محمد جدوع ،ط ١ مكتبة الرشد ٢٠١٣م.

٧- بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين.د.عودة خليل أبو عودة،ط٢ دار البشير ،عمان -الأردن ١٩٩٤ م.

٨- بيان إعجاز القرآن .للخطابي،ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق/ محمد خلف الله،وزغلول سلام ، دار المعارف-القاهرة .

٩- البيان والتبيين . الجاحظ ،تحقيق /عبد السلام هارون ،ط ٥ الخانجي - القاهرة ١٩٨٥ م

١٠- التصوير الفني في الحديث النبوي .د.محمد لطفي الصباغ ط١ المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٨.

١١- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية .د. عز الدين السيد.

١٢- الخصائص الفنية في الأدب النبوي .د.محمد سعد الدبل ،ط٢ العبيكان ١٩٩٧م.

١٣- دلائل الإعجاز.عبد القاهر الجرجاني . تحقيق/ محمود شاكر . ط٣ الخانجي ١٩٩٢ م.
١٤- الرسول ﷺ واعظًا بليغًا .د.عبد القادر حسين ، مكتبة أوزيريس .
١٥- صحيح البخاري بحاشية السندي. ط دار إحياء الكتب العربية (الحلبي).
١٦- عبقرية محمد .العقاد ،ط نهضة مصر -القاهرة.
١٧- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق .د.صبحي إبراهيم الفقي ،ط١ دارقباء -القاهرة ٢٠٠٠م.
١٨- عمدة القاري في شرح صحيح البخاري. العيني ،ط دار الفكر - بيروت،٣٥٩.
١٩- الفائق في غريب الحديث.الزمخشري،تحقيق /محمد البجاوي ،ومحمد أبي الفضل إبراهيم،ط١ دارالكتب، القاهرة ١٩٤٥م.
٢٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري .لابن حجر العسقلاني، تحقيق/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه / محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه /محب الدين الخطيب ،ط دار المعرفة - بيروت .
٢١- الكشاف للزمخشري . ط دار الفكر .
٢٢- لسان العرب . لابن منظور ، ت- أمين محمد عبد الوهاب ، محمد الصادق العبيدي . ط٣ إحياء التراث العربي - بيروت ١٩٩٩م .
٢٣- النص والخطاب والإجراء. دي بوجراند ،ترجمة د.تمام حسان ،ط عالم الكتب -القاهرة ١٩٩٨م .
٢٤- النهاية في الغريب والأثر.ابن الأثير،تحقيق /طه أحمد الزاوي ،ومحمود الطناحي،ط١ دار إحياء الكتب العربية ،القاهرة ١٩٦٣ م .
٢٥- وحي الرسالة .احمد حسن الزيات ، دار الثقافة - بيروت ١٩٨٥م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٤٧٢١
تعاون المؤمنين	٤٧٢٤
(المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضُه بعضًا .....)	٤٧٢٧
(ترى المؤمنينَ في تراحُمِهم ،وتوادِّهم، وتعاطفِهم كمثلِ الجسدِ إذا....)	٤٧٣٢
الأخوة في الدين	٤٧٣٢
(المسلمُ أخو المسلمِ لا يظلمُه ولا يُسلمُه ، .....)	٤٧٣٨
(لا يُؤمنُ أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسِه)	٤٧٤٠
السلام من سبل تحقيق الوحدة	٤٧٤٠
أن رجلًا سأل النبي ﷺ :أيُّ الإسلامِ خيرٌ ؟ قال: (تُطعمُ الطّعامَ،.....)	٤٧٤٢
(لا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجرَ أخاه فوقَ ثلاث يلتقيان .....)	٤٧٤٥
المسئولية والرعاية	٤٧٤٥
(ألا كلُّكم راعٍ ،وكلُّكم مسئولٌ عن رعيَّتِه .....)	٤٧٤٥
(ما من عبدٍ يسترعيه اللهُ رعِيةً فلم يَحُطْها بنصحِه .....)	٤٧٤٨
حرمة المسلم	٤٧٥١
(أتدرونَ أيُّ يومٍ هذا ؟قالوا : اللهُ ورسولُه أعلم ،قال فإن هذا يومٌ حرامٌ ،.....)	٤٧٥١
(إذا تواجهَ المسلمانِ بسيفَيْهِما فكلاهما من أهلِ النارِ .....)	٤٧٥٦

الموضوع	رقم الصفحة
من حقوق المسلم	٤٧٥٩
(أمرنا رسول الله ﷺ بسبع : أمرنا بعيادةِ المريضِ،واتباعِ الجنازةِ.....)	٤٧٥٩
(إياكم والظن، فإن الظنَّ أكذبُ، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا.....)	٤٧٦٢
خاتمة	٤٧٦٨
المصادر والمراجع	٤٧٧٠